

وقائع ماحدث



تأليف : وجيه الشربتلى

حلمى التونى ٩٣

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal
سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة
سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ١٨٠٠ ...

إهداء 2005
أ/إبراهيم منصور غنيم
القاهرة

العدد ٥٣٧
سبتمبر ١٩٩٣ ● ربيع أول ١٤١٤ هـ
NO - 537 - SP-1993

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا - أمريكا واوربا وآسيا وافريقيا ٣٠ دولارا - باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

، فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول
ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان)
٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب :
- القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا :
القاهرة ج . م . ع .
TELEX 92703 hilal u

وقائع ماحدث

بقلـــم :
وجيه الشربتلى

●

دار الهـــلال

•• في ذلك الزمن الشائه، حيث المدينة تحبل بالزيف.
نسـجت الأحداث هذه الوقائع على وجه التقريب،،،

الغلاف للفنان :

حلمى التـونى

رغم أن ذلك النهار لم يك قد انتصف بعد، فإن الحرارة المفعمة بالرطوبة العالية تحدث اختناقاً يزهق الأنفاس .

الشوارع خالية إلا من أمثال عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة وهو واحد من أفراد قليلين يدبون على قدمين وسط هذا الجو الخانق، لا هو يمتلك سيارة مكيفة ولا بمقدوره أن يستأجر مهاجراً يبعث به إلى حمام البخار اللزج فى الشوارع العارية بلا غطاء يحميها من هجير المناخ الصحراوى اللاهب، والذى لم تحد العمائر الشاهقة ولا الطرقات الفسيحة من سطوته، وبلا رداء تتدثر به من البخار المتصاعد من مياه الخليج، هو نفسه واحد من أولئك المهاجرين الذين وفدوا يبيعون القدرة والعلم للقاعدين بالدشداشة والغطرة والعقال فى ظل التكييف المركزى فى أغلب الأحوال .

لكنه كأى من هؤلاء الذين يدبون على قدمين، رغم اختلاف اللهجات والنحل والمشارب والأهداف، كان مضطراً فى ذلك اليوم إلى أن يترك عمله الذى لم ينته منه بالأمس حسب الأوامر التى صدرت إليه من رئيسه المباشر الذى خلّص سبابته من بين أصابع قدميه المطوية تحته ليرفعها فى وجهه محذراً .

ترك عمله إلى حيث الشارع الواسع يدب إلى مكتب القنصل العام المصرى فى ذلك البلد الذى يغترب فيه عن قاهرته، وهو بالتحديد لا يعنى تلك القاهرة المكتظة بالتلوث والضجيج والغبار والناس وكل شىء.. ولكنها تلك الزوجة التى استطاعت أن تحمله على الرحيل إلى ذلك البلد الذى لا يعرف هل هو يحبه أو يكرهه، ولكى يخدم عند أولئك البشر الذين لاتعرف هل هم يهشون فى وجهك ابتغاء مصلحة تؤديها لهم، أم سخرية منك واستصغاراً لشأنك. هذا المعنى تجسد أمامه نابضاً، عندما اضطر شريكه فى السكن أن يحمل أغراضه على كاهله ويئوب حاملاً خيبة الأمل، التى لم تعد تركب الجمل فى هذا البلد، بعد أن هجر أهلها الجمال إلى السيارات الأمريكية الفارهة، فى مقابل الثروات الطبيعية للبلاد. وبعد أن كان «فرخة بكشك» عند

أصحاب العمل، فهو لم يقصر فى أداء مهمته ولم يتوان ولم يقترف معصية من تلك التى يرتكبها أصحاب البلاد أنفسهم ـ الذين هم مواطنون من الدرجة الأولى ـ وتجرّم شرعا بالنسبة للمهاجرين الذين هم مواطنون فى الدرجات السفلى، لكن كل ذنبه أن وقعت يد صاحب العمل على من يستطيع أداء نفس المهمة بأجر أقل، هكذا، وبكل بساطة أصبح غير مرغوب فيه.

ترى هل طلبه القنصل العام ليقول له نفس المعنى ـ بالتأكيد لا ـ فمن هو لكى يتم إبلاغه عن الطريق الدبلوماسى؟ ـ لا، وألف لا ـ فهو ليس إلا عامل معمل تحميض فى تلك الجريدة التى ينفق عليها التجار ويشتريها التجار ويعلن فيها التجار عن بضـــاعتهم التى يشكل الوافــدون، الذين هو منهم، القوة الشرائية الأولى لها .

استقبله صباح ذلك اليوم عامل الهاتف فى تلك الجريدة الخليجية ليخبره بلهجة عربية من كثرة ما اختلطت باللهجات الأخرى من الأجناس المهاجرة، أصبحت لا تعرف هل هى لهجة أم لكنة. أخبره أن مكتب القنصل العام يدعوه للمثول أمامه .

ترك العمل الذى لم يتمه بالأمس، رغم تحذيرات ذلك المتربص به أبداً، ورغم مايعرفه عن مدير التحرير، الذى غالباً ماكان صحفياً فاشلاً فى موطنه الأصلى، والذى ولد فى الغالب خارجه، فهو بالتأكيد سينتفض غاضباً إذا ماتأخرت عليه تلك الصور المكررة يومياً لصاحب البلاد وربما ـ أيضاً ـ العباد، والعياذ بالله .

لذلك فهو يتعجل أمره، ويريد أن ينتهى من ذلك اللقاء الفريد بأسرع مايمكن، ويهتف من أعمـــاقه : «اللهم اجعله خيراً». فهى المرة الأولى التى يلتقى فيها بقنصل عام .

ترى ماذا يكون هذا القنصل العام ؟

هو يعرف عن يقين أن للديبلوماسيين قفازات ناعمة يرتدونها لمواجهة الأمور الصعبة، مثلما ارتدى ذات مرة، ذلك المنتفخ بجهاز الضبط والإحضار قفازه الدامى، وألقى به فى زنزانة انفرادية، دخلها من قبله آلاف الأفراد منذ مماليك القلعة حتى

طلبة الجامعات المصرية، الذى كان واحداً منهم، يوم كان له صوت يجأر فى الشوارع، تردده قاهرته تلك خلفه بتوتر يفضح خوفها، الذى انتهى بها إلى زنزانة مجاورة له فى ذلك المعتقل الذى أطلق عليه ضابطه العظيم: «هيلتون السجون»، ذلك أن فول الصباح كان يقدمه متعهد تزويد نادى ضباط الشرطة بالطعام، يومها تساءل: «ماذا كانوا يطلقون على ذات المعتقل فى العصور المتعاقبة، حيث لم يكن قد ظهر بعد متعهد توريد الطعام إلى حضرات الضباط» .

لكنهم بعد ذلك قاموا بتوزيعهم على سجون مصر، الطالبات لسجن النساء بالقناطر الخيرية، والطلبة لسجن «أبو زعبل» ، و «الاستئناف» و «طرة» و «المزرعة» وغيرها .

لكن لماذا كل هذه الخواطر وهو فى طريقه للقاء ممثل بلده فى موطن الغربة؟ أو ليس من المفروض أن يكون هو نصيره فى أى محنة، أو أن الحر والرطوبة تسللا من تحت الجمجمة إلى الدماغ، فاختلطت الأمور.

مضى يحث الخطو وهو يحاول أن ينزع قميصه عن لحمه ـ نصحه زميله ذاك الذى غاب مطروداً بغير كلمة شكر، بأن أفضل طريقة لمقاومة الرطوبة هى أن ترتدى ملابس قطنية ثقيلة ، غير تلك التى يصنعها الأجانب فى بلادهم من مشتقات البترول المنهوب من الأرض العربية. لكن من أين له هذه الرفاهية؟ عامان وأوشك الثالث أن يختتم أيامه وهو لم ينته بعد من توفير ثمن ما اغترب من أجله، يعمل فى غير تخصصه، مثلما يغسل طالب الطب الأطباق فى لندن ويسعد لكن من له بإحساس السعادة ذاك، وهو يحترف تلك المهنة فى الغربة، التى لصقت به لاتريد أن تبرحه منذ قبل العمل مع مصور الحى الوحيد، الذى يفتح حجرة فى مسكنه على ذلك الشارع الجانبى ببولاق الدكرور، أيضا كانت هذه المهنة هى السبب فى أن يترك تخصصه وما انفق من سنوات مضاعفة ليحصل على شهادته فى ذلك الفرع النادر من العلوم الإنسانية، ألا وهى اللغات القديمة، التى ليس لها مجال فى مصر، أو فى بلاد البترول المسلوب عبر الأنابيب .

كان عليه أن يسكن وأن يعيش وأن ينفق على قاهرته حتى قبل التخرج بسنة وبضعة شهور. وجاء إلى هذا البلد بإغراء العمل فى القسم الخارجى لهذه الجريدة التى تعتمد فى أهم موادها على النقل من الصحف الأجنبية التى تصدر باللغات الأفرنجية، أما المواد الأخرى فلا دخل لأحد بها، إلا الرءوس العليا للجريدة، فمعظمها يعتمد على مصدر واحد وعلى نشاط فرد واحد وعلى تحركاته وإيماءاته وشطحاته، أيضاً. لكن الفأس كانت قد وقعت فى الرأس، وسبق السيف العزل، حصل على وعد بعمل، والتحق بعمل آخر، هكذا ببساطة فسوق العمل هنا هو الذى يختارك سواء رغبت أو لم ترغب، فليس أمامك إذا لم تمتثل إلا الطريق الثالث، وهو أن تعبر الحدود خائباً، لكن «ليس كل مايتمناه المرء يدركه» كلمة بالتأكيد قالها خائب سابق.

★ ★ ★

قدم رجلا وتلكأ بالثانية ، وقف على مدخل الغرفة الواسعة الرحبة، يتلقى دفعات الهواء البارد المنبعث من الداخل، تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيه خلفه .

حرك سعادة القنصل العام نظارته النصفية وهو يرفع رأسه عن الأوراق التى أمامه، ورمق الواقف متردداً فى الدخول بنظرة فاحصة، وابتسم .

ـ «آه . هذه الابتسامة لابد وأن وراء ها شيئاً . الدبلوماسيون لايبتسمون اعتباطاً. هل ماتت أمك وأنت فى الغربة ياعبد المعبود والقنصل العام يعزبك بابتسامة؟ ربما !!. » .

خاطر يبعث على الضحك أكثر من الأسى .

رفع سعادة القنصل العام يده وهو يشير إلى مقعد أمامه، وبصوت مفعم بود دبلوماسى مريب :

– اتفضل ادخل، القنصلية بيت كل مصرى هنا ياسيد. اتفضل

تقدم عبد المعبود خطوة ، وقال وهو يتلعثم :

– أنا عبد المعبود عبد الـــ .

ولم يتركه القنصل يكمل بقية الاسم، ربما اختصاراً للوقت :

ـ عارف وفى انتظارك. ادخل واقفل الباب وراك لو سمحت عشان التكييف مايتسربش. مانت عارف .

ـ «ياريتنى كنت عارف» .

كتمها فى صدره وتقدم ليقف منتصباً ، يداه معقودتان أمامه، يترقب. اختار القنصل من بين الأوراق التى أمامه عدة ورقات مشبوكة بدبوس واحد، عليها كلام كثير وتأشيرات وأختام .

أوشكت عينا عبد المعبود أن تخرجا لتلمح كلمة منها، أو سطراً بلا جدوى.

ـ على فكرة أنا أول ماقريت اسمك فى الأوراق، قلت دا عامل من عمال البناء ده ولا إيه. ماتأخذنيش، أصل اسمك .

ـ «مابلاش الأسلوب ده ياسعادة البيه، وهات م الآخر» .

أمعن عبد المعبود النظر فى الأوراق التى قدمها له القنصل العام، وانتفض واقفاً وهو يعيد الأوراق إليه، وكأنه يتخلص من لسعة عقرب :

ـ إيه ده يافندم .

قالها وسقط جالساً، واعتدل القنصل ليرتسم تعبير صارم على وجهه:

ـ أنا آسف ، طبعاً الموضوع صعب، خصوصاً إذا كان مفاجأة لك، زى مالاحظت دلوقت .

عاودت العقرب لتلسع عبد المعبود فانتفض واقفاً من جديد .

ـ مع السلامة. اعتقد مهمتنا انتهت عند كده. مع السلامة .

أين سمع هذه العبارة من قبل وبنفس الجهامة والخشونة، لايستطيع أن يتذكر، وكأن المشهد يعيد نفسه، لكن وازعاً صارماً أوعز إليه بالخنوع فخضع !!



أصبح طريق العودة من مقر القنصلية إلى مبنى الجريدة، أكثر صعوبة، اللزوجة اكتسبت قدرة على أن تلسع البدن والوجه، والشمس وهى تسقط لاهبة تزهق الروح وتحرق قدميه رغم الحذاء والجورب وكأنه يسعى حافياً على جمر النار، عارياً وسط اللهيب المشبع ببخار الماء .

امتدت رائحة تزكم الأنف، هل هى رائحة اللحم المحروق من قسوة النار. بالتأكيد لا، إنها رائحة امرأة، ازكمته هذه الرائحة من قبل. آه، تلك المرأة المجوسية المعطرة بدهن البقر، نامت فى حضنه فغشى عليه، يومها قالت له بانجليزية ركيكة فهم منها أنه رجل خائب، بلا قدرة. «هل كانت نبوءة تتحقق اليوم؟ ربما» .

عاد الأسفلت الملتهب يحرق قدميه الحافيتين داخل الحذاء الذى بكى واشتكى :

ـ «لا تملك ياعبد المعبود رغم مايدخل إلى حسابك من نقود لابأس بها حذاء آخر يؤنس وحشة ذلك المركوب اللئيم. أنت مثل هذا الحذاء تماماً ياعبد المعبود تشكو الوحدة واللهيب، لكن يبدو أن القدم التى تنتعلك ركبت حذاء آخر. ألا تعنى هذه الأوراق أن ماكنت تحسبه قد وقع» .



مثل النسمة الطرية وسط الهجير، مثل عبير غيط برسيم انعكست هذه الصور على مرآة الخاطر :

المكان : ساحة جامعة عين شمس. السبعينات كانت قد خطت عاماً أو بعض عام. الوقت: ليلاً. الطلبة والطالبات يتجمهرون يريدون حلاً.. والسلطة مدججة بالسلاح تتربص فى حصارها لمنافذ الدخول والخروج.

وكانت بين الحاضرين قرنفلة عبقة، تتألق فى الظلام من بعيد ـ لمحها تنظر إليه، ونبيهة صديقتهما تهمس لها فى أذنها ـ كلاماً عرف فيما بعد ـ أنه كان يخصه ـ تقدم وأضاء ت ليل حياته الناضبة بقبس من بهائها، هكذا توهم !

لكزه مواطن من الدرجة الخامسة يعب فى جلبابه الأبيض من فوق سروال من نفس القماش واللون، تغطى رأسه طاقية بيضاء تذكره بتلك التى صنعتها له أمه يوم

خطى أول خطوة إلى كتاب القرية النائية فى جوف الوادى، حيث نار الشمس تنضج أريج المزارع كالبخور. أخذ نفساً عميقاً كأنما يتشمم تلك الرائحة عن بُعد، فملأت خياشيمه رائحة هى خليط من عرق المجوسيين والنساء المتشحات بالسواد من قمة الرأس إلى أخمص القدم. لم يسعده الحظ يوماً ويخوض تجربة كتلك الحكاوى التى ملأ زميله المطرود رأسه بها، وكلها عن تلك الخيام السوداء المتحركة عندما تنضوى الخيمة عن وجه مليح كأنما تسللت الشمس إليه من خلف الحجب ولونته بلون حنطة الحقول المصرية، أو بلون طمى النيل ـ لم يصدق، وليس بوسعه أن يعرف لأن الخيام مازالت هى الخيام تتحرك فقط أمامه، تتثنى أحياناً أو تتقصع إن شئت الدقة، لكنه لم يجرؤ يوماً من الاقتراب أو الهمس فدون ذلك قطع رقاب. تكفيه تلك الفلبينية اللطيفة التى تغنيه عن الالتياع والتى تدعى أنها لم تعد تذهب لغيره منذ عرفته بهذه الفحولة الطاغية.

هل أنساه الطريق تلك المصيبة التى تحملها تلك الأوراق إليه :

– « لكن.. عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» .

– «لا يارجل» .

نهر بتلك الكلمة ذلك الخاطر .

– «فما هى» هى «ماهى» لا تعدلها أنثى، حتى فى غدرها وتقلبها فهى المتفردة أبداً .

لم يخطر طيفها على باله منذ فترة .

– «ماذا حدث. أليست هذه هى قرنفلتك الغالية ؟! » .

– «قرنفلتك، تصطبغ اليوم بلون الخيانة » .

– «لكن. هل حقاً ماأقدمت عليه خيانة، الخيانة هى أن تفعل مالم يكن متوقعاً منك، أن تفعل نقيض الفعل المنتظر حدوثه، لكنك يا صغيرتى، تفعلين الشىء ونقيضه فى ذات الوقت. من يدرى ربما تكونين الآن فى حالة وجد واشتياق، تتلهفين

على مجرد خبر عن معبودك، الذى هو أنا: «عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة».

كأنما سمع صوتاً يناديه. التفت :

– آه . هو أنت ؟

– أنت فين ياراجل ؟

قالها المواطن المصرى العائد لتوه من أرض الوطن، ثم أردف وهو يفتح ذراعيه ليأخذه بالحضن :

– دوختنى عليك ياراجل .

– اشمعنى مانت عارف طريقى ؟

– أصل معايا رسالة مستعجلة من مصر ياسيدى. قلت أسأل قبل ماارجع يمكن يكونوا عاوزين حاجة، قالوا لى فوت بكره خد رسالة. وآدى الرسالة ياسيدى .

وأخرج من جيب جلبابه «الوطنى» مظروفاً مغلقاً قدمه له :

– وآدى شريط تسجيل. وآدى ظرف فيه صور، يعنى رسالة مجسمة بالصوت والصورة.

خبطه على كتفه بمودة فائقة وانصرف .

مضى عبد المعبود يعب فى السير، يتخبط، يصطدم بأعداد الهائمين من أبناء السبيل الذين هو منهم، لايدرى إلى أين تقوده خطاه.

فجأة وجد نفسه يصعد إلى السكن، متجاهلاً ذلك الذى يفرك بين أصابع قدميه ـ أيضاً ـ ذلك المناضل بقلمه المثلوم فى صحيفة التجار بعيداً عن حمل السلاح فى الداخل .

فتح باب شقته ولم يدر أن عليه أن يخوض معركة داخلية .

ففتاته الفلبينية تنتظر قدومه وعلى شفتيها اللتين يتقدم عليهما أسنان كحبات اللوبيا البيضاء، ابتسامة، تلقاها كما لو كانت طعنة .

★ ★ ★

قالت متذمرة بانجليزية متعثرة لم يفهم منها حرفاً، وهى تنتفض واقفة كأنما ترتعد من برد يهز البدن مايفيد تذمرها، لأنه لم يكن معها طوال الوقت، كان بعيداً تعتصره حمى .

فعلاً كانت حمى تلك التى تعتصره .

بسط الرسالة على المنضدة الصغيرة أمام المقعد الذى يتوسط الصالة الخالية إلا من كرسى آخر، وجهاز تسجيل نقالى وراديو صغير وبضعة كتب حملها على قلبه من القاهرة ولم يفتح منها كتاباً .

وبدأ يقرأ الرسالة :

«معبودى الخائن» .

توقف. من منا هو الخائن ياعزيزتى «ماهى» أو «مها» أو «ماهنور» يا «قرنفلتى» .

«من بعد الأشواق» .

– «حنهزر بقى» !!

قالها وهو يلقى بالرسالة على طول يده فوقعت على الأرض بعيداً، وأمسك بالأوراق .

– دعوى تطليق ياماهى. وأمام المحكمة. ليه ؟

تأمل اسميهما، لقد استهلكا سطراً كاملاً على الآلة الكاتبة لماذا اسماهما، بهذا الإسهاب: عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة. ماهنور صادق الزعفرانى خليل، كأنما ينقصهما أن يذكرا شجرة العائلة، أيضاً .

ـ «لكن كيف اقف معك فى محكمة ياماهى» .

– « منذ ذلك اليوم الذى وقفت فيه بين أكثر من مائة طالب وطالبة، لم أدخل محكمة ولا عرفت قدماى سكة نقطة بوليس أو مركز شرطة أو حتى تحادثت مع خفير مزلقان» .

– «هناك فى الموضوع موضوع ياقرنفلة» .

★ ★ ★

– «بردان أنا ياقرنفلة غطينى» .

– «والله ما أغطيك وأقرب يمك حاش تبيع خالك وترهن عمك» .

كان هذا هو موال الفجر والغروب على الزراعية، يشدو به حسان بن عم نافع جمعة، وتجيب به الصبايا وهن يخطرن يملأن الجرار .

اقتبس اسم «قرنفلة» ليسبغه علي قاهرته الأزلية ماهنور من حسان وحبيبته حسنية التى راحت سيرتهما فى الناحية سيرة حسن ونعيمة .

فكان الناس يقولون حسان وحسنية .

آخر أخبارهما التى بلغته قبل أن يغادر إلى بلاد النفط والأوجاع، والتى هى نفسها طريق الملح والتوابل واللؤلؤ فى الزمن القريب، أن حسان تزوج من حسنية على خلاف كل الأساطير الشعبية التى تتعمد الفرقة بين الحبيبين، وأنهما انجبا توأماً، ولداً وبنتا ، أسمياهما «قرنفل» أو «قرنفلة» وأطلق أهل البلد على أسرة حسان «عيلة الورد» عندما انجبا طفلتين بالتتابع اسمياهما «فلة» و «ريحانة» .

فقط. الآن يدرك أنه ظلم حسنية باقتراضه كنيتها ليلصقها بماهنور. حقيقة أن القد هو القد، واللفتة هى اللفتة ، والنتوء البارز على الشفتين هو نفسه النتوء. لون البشرة يختلف. نعم فتلك لونتها الحقول بلون أغصان القطن البنية، وهذه تشرب لون بشرتها الأبيض ببقع حمراء تتناثر على مساحة الوجه والبدن، شتان مابين لون الحقل، ولون الحليب المصبوغ بالحمرة و «الزواق» .

كم يدرك، الآن، أنه يعشق بلده التى ولد بها ولعق ترابها ولاعب رباها، عشقاً

مبرحاً، بل ويحن إليها، الآن، على وجه الخصوص، حنيناً موجعاً ماذا لو أن الحياة قذفت به من جديد إلى الزراعية يرقب الأجيال الجديدة من الصبايا ، ربما تحملن نفس الجرار، وربما تشدون بنفس الأهازيج.

ماهذا الحنين المفاجىء العاتى إلى الأرض السمراء والأذرع النحاسية المعروقة من كد الحقول، والصبايا الحسان خلقة لا صنعة، لم يتملكه هذا الشعور منذ غادر البندر إلى القاهرة ليلتحق بجامعتها طالباً فى كلية الآداب قسم اللغات القديمة .

- «لو كان قد درس الآثار لكان ذلك أقرب إلى بيئته وناسه، لكن ماذا يفعل - وليس كل مايتمناه المرء يدركه ـ نفس القول الخائب يعود ليبرر به خيبته، فهو لم يتمنَّ لا هذه ولا تلك، اختار له ناس آخرون من وراء المكاتب مستقبله ونوع دراسته وقذفوا به إلى هذه الكلية بناء على آخر رغبة ذيل بها ورقة التنسيق اللعينة» .

سقط فى حنك أم الدنيا، ففغر فاه دهشة أو اضطرابا أو رهبة ـ سيان. ضاع فى ضجيجها وحنينها إلى فعل صارخ، وسرعان ما وجد نفسه ينعق مع الناعقين، شدوه إلى التذمر والضجر، طوح به الضجيج والسرعة بعيداً عن طراوة النسمة، واشتبكت معه تلك الدمية الأناضولية الأصل تصرخ، لايدرى عن ماذا كان صراخها، فهى دائما مشدودة الوتر، مملوءة بالتوتر والقلق، كأنما تهرب من مطارد عنيد، كانت، ولعلها لاتزال، فأرة صغيرة مذعورة أبداً لكنها عالية الصوت، مشحونة بكهرباء مغناطيسية تشدك إليها فتتوتر معها . ضحك زميل وكان قد نسى اسمها، فقال «تلك الفتاة ذات الفولت العالى».

ضاعا معاً، مرة إلى غياهب السجن، ومرة إلى متاهات داسا فيها بإرادتهما، صنعا حياة على الوهم، حقاً ، على الوهم ، كان طالباً لايزال يقفز العام الدراسى الواحد كل عامين، يعيش على مايفيض عن الأسرة، أطلق أصحابه وهم أفضل من يقرض له طعامه الآتى من حجر الأم، على ما يصله من الأهل، صفة «الجراية»، نقل الوصف لأخيه تفكها، ظن الأخير أنها التسمية الدارجة عند أهل القاهرة لمساعدات الأهل، فكان يأتيه أو يرسل إليه بالجراية كل شهر، ينزل عليها رفاق الطريق الطويل

إلى المستقبل الموهوم حتى يلتهموها عن آخرها، يتجشأون وهم يمنون النفس بالمزيد، لكنه لم يكن يجرؤ أن ينقل طلب الرفاق إلى الأهل، فهو يعلم بعد الله أية مشقة يكابدونها وأى حرمان يفرضونه على أنفسهم حتى يوفروا له تلك الجراية التى لاتبيت ليلتها فى أوعيتها أبداً، والتى غالباً مايطول أو لا يطول منها قضمة .

★ ★ ★

عندما نزح من قريته التى تمسك مفتاح الطريق إلى الجنوب، كانت الثورة قد قامت واستقرت وتجاوز عمرها السنوات العشر بعام أو عامين .

لم تنل الثورة من أسرة المتولى أبو زغلة، كذلك لم تمنحها شيئاً وظلت تركة الرجل الكبير ، كما هى لم تمسّ ، منذ جده لأبيه أو أبعد من ذلك لايعرف ، وعكف أخوه الأكبر يؤدى دور الأب، ويدفع بأصغر اخوته عبد المعبود إلى التعليم، هكذا كانت الرغبة الأخيرة للرجل الذى بنى وعمر وأنجب وزرع ومات .

نفحة من طيب الثورة قد بلغته، فتمتع وهو على أعتاب المرحلة الثانوية بمجانية التعليم التى جاء ت محرضاً لأخيه على أن يدفعه إلى مزيد من التحصيل والتقدم .

القاهرة بعد عشر سنوات من الثورة بخلاف القرية التى لم تعرف من الأحداث إلا أن الأولاد ذهبوا لحرب فى اليمن .

بعض وجوه القرية لم يعرفوا أين تقع اليمن تلك من أرض الله الواسعة ودارت أحاديث المساطب وقعدات الشاى ساعة العصارى بعد ذلك عن معنى أن ينقل أولاد مصر إلى أرض بعيدة يدافعون عن شىء ما هناك ضد أمر لم يبلغهم علم به .

ما هذا الشىء ؟ .. وما هى ضـــرورة الدفاع عنه ؟ لم يكن بالقـــرية كلها جواب شاف .

فى القاهرة ، التقى عبد المعبود بمن يجيب على السؤال .

حركت الإجابة فى نفسه نوازع كامنة : الثورة ، الملكية ، الحق الإلهى حق الحياة .

وانحاز ، وكان انحيازه مؤشراً .

على أرض سيناء ، تحرك أبناء مصر .

هذه المرة ، عرف المعنى وتوجس .

كدورات الأزمات فى رأس المال ، تجيء دورة الحـــروب مع مصر ، كل عشـــر سنوات .

إنها حرب إجهاض بلاشك .

من كتب التاريخ التى درسها في المرحلة الثانوية ، جاء ته الصورة بتكرارها : «التاريخ يعيد نفسه» .

محمد على ، وترسانة السلاح فى بولاق ، والمؤامرة تلو المؤامرة .

عبد الناصر والتسليح وزحف المد الثورى ، والمؤامرة .

نفس العناصر على نفس المسرح بنفس الأبطال لكن مع اختلاف الأسماء .

إنه شيء «كالريبورتوار» فى حركة المسرح .

هذا الشيء عرفه أيضاً من عشرة القاهرة : عندما يعاد تمثيل نفس المسرحية ، ولا مانع بأبطال آخرين ، إذا دعت الضرورة .

ثم جاءت الهزيمة .

هرول الجنود بلا تدبير .

فانهزموا . وكان الانسحاب : النكسة .

وعندما رحل الزعيم ، ترك الحزن يعاشر المرارة فى النفوس ، ويفرز القلق .

★ ★ ★

جاء ت ماهنور إلى القاهرة ، ومن ثم فقد خطرت فى ساحة الجامعة، فى عام الحزن والترقب ، لتضفى على حياته بسمة تمددت لتصبح ضحكة ، تتضخم فتولد قهقهة لها – الآن – طعم السخرية المرة .

شاع القلق والتوتر ، امتصت شحنات من القلق العام لتمتزج بقلقها وتوترها ، وليصنعا كياناً متجانساً ، ينفعل بالسخط ويتحرك مع التذمر ، ويصخب بالضجيج .

كانت صيداً ، أرضاً خصبة للزرع والحصاد المبكر ، ونفساً تتوزع بين النوازع والنواهى ، اسفنجة صغيرة جافة قابلة للتشبع .

وقع الاختيار عليه ليكون الفارس الصياد .

★ ★ ★

ود لو يغنى لها من ذلك البعد «حرّان أنا يا قرنفلة هوينّى ، أو ، صدمان أنا يا قرنفلة فارقينى ، أو ، ندمان أنا يا قرنفلة ارحمينى» . أى شىء على الوزن – فقط – ليكن معبراً ، لكنه توقف ليعاتب نفسه :

– «لا . ليس إلى هذه الدرجة» !!

مضى وقت وهو غارق فى تواتر أفكار تروح وتجىء ، تعيد صور أيام تباعدت ، كأنما انفتح صندوق الدنيا يتلصص من فتحته الخشبية ، فى غفلة من الوعى ، على تصاوير يتلهى بها عما وقع لحياته الزوجية من انفصام .

ماذا فعلت فيك الصدمة ياعبد المعبود ، وأنت الوحيد الذى يقولون إنه هو الذى أفلح بين أخوته ؟ ومالهم اخوته ؟ ما هى الخيبة التى تنسب إليهم ؟ وما هو الفلاح الذى ينسب إليه ؟

الكبير ، عبد المقصود عبد الستار المتولى أبو زغلة ، هكذا يحب أن يدعوه الناس بإسمه كاملاً ، كأنما يقف دائماً فى طابور الترحيلة ، ويخشى أن يختلط دوره بدور لعبد المقصود غيره . ماله والخيبة ، وقد أصبح الآن يمتلك سيارتين نصف نقل ، يؤجرهما لمن يستغلهما لحسابه بينما التصق بأرضه لا يهمل زرعة .

والأوسط ، عبد الفتاح ، فتح الله عليه فى كار المقاولات ، وأصبحت بضاعته من الأنفار ، يتقاضى عنهم بالرأس . كل رأس بضعة قروش يجمعها فتصبح جنيهات ، يرصها فتصبح مالاً يشترى منه داراً وكاريتة وعباية وقفطان وخيرزانة ، وعيّل يجرى إلى جانب الكاريتة يحث الحصان على الإسراع .

هل أفلحت عنهم بالفعل يا عبد المعبود ؟ هل حقاً أفلحت لأنك حصلت على شهادة جامعية ، لم تؤهلك لعمل – وانخرط – كأنك يابو زيد ما غزيت – تعمل والشهادة الدراسية معلقة مثلما يعلق المحكوم عليه بالإعدام به !

★ ★ ★

انقضت هوجة الطلبة بعد ليلة التحمت فيها أجسادهم توقياً من لسعة البرد ساعة الفجرية ، واحتوى فيها عبد المعبود ماهنور فى حضنه – بينما التصقت بها صاحبتها من الناحية الأخرى – فباتت ليلتها على تراب الأرض بين حضنين دافئين – لكنها ، بدافع يتحرك كأنما على غير إرادة منها كانت تدخل أكثر كلما تمدد الوقت تحت ذراع عبد المعبود المفرودة كجناح حمامة تضم فراخها ، كأنما انتقل كل ما فى هذا الجو المحموم إلى بدنها الرقيق ، يدغدغ عندها أحاسيس أنثوية .

كان عام «الحسم» قد تحول ، بقدرة قادر ، إلى عام «الضباب» .

وبات واضحاً ، لدى قطاعات الشعب المختلفة ، أنه لا ضباب إلا فى أدمغة من يهوّمون تحت سحابات دخان الغليون الأزرق .

بدأ تجمع الطلبة على هيئة حلقة نقاش على أرضية ساحة الجامعة الترابية ، وتحت ظلال أشجارها ، ثم تطورت إلى مؤتمر عام ، تحول إلى ذلك الاعتصام الذى قادت نبيهة ماهنور إليه وتحفز عبد المعبود للقنص .

كانت ثمة مشاعر عارمة تمور فى الصدر الصغير القادم من حضن الدلتا ، حيث الأهل يزرعون ويحصدون ويبيعون ويشترون ويتولون الوظائف ولا يتعاطون السياسة .

لكن تلك الأيام ، كانت السياسة مطروحة على الطريق ، كما تعرض بضائع الفلاحين للأخذ والعطاء أيام الأسواق .

عرفت ماهنور وقتها رغم حداثة السن ، انفعال العاطفة ، امتدت لها يد فتى ريفى ، ظلت ذكراه دافئة فى حنايا الصدر لم يعرف به أحد ، هذا الفتى أخذ يصب فى دماغها كلاماً يعجز عنه أى كبير فى العائلة .

البذور ملقاة إذن فى تربة النفس ، لم يدر أحد من المنوط بهما تجنيدها نبيهة أو عبد المعبود إنهما إنما يقطفان الثمار الأولى لذلك النبت الذى زرعه فتى ريفى فى سوق القرية .

بدأت المناقشات دائرية فى حلقات تكونت تلقائية من الطلبة المعتصمين ، ناقشوا أحلامهم عن الديمقراطية ، التى كانت - حتى الجامعة - تفتقدها حتى فى هذا الزمن .

قال طالب أصبح له دور فيما بعد :

- «إحنا عاوزين نشارك مش نتفرج» .

لكن المتربع على قمة السلطة لم يعجبه كلام «العيال» .

وأردف :

- «وعشان نشارك لازم نعرف ، وعشان نعرف لازم يقولولنا الحقيقة فين» .

وانتفض آخر ، العصبية أضاعت من كلماته تأثيرها :

- «همه فاهمين إيه ؟ بيستخفوا بعقولنا ليه ؟ صمود ، ردع ، استنزاف ، مواجهة ، حسم ، وفى الآخر ضباب» .

وصرخ وهو يتهاوى على الأرض .

- «ضباب يا ناس . ضباب» .

تغاضى من هم حول الفتى عن بكائه .

★ ★ ★

هرول الطلبة والطالبات مع بدء طلوع الشمس مولين وجوههم شطر بيوتهم ، وقد انحسر حلمهم القومى ، عن حنين موجع إلى لقمة وفراش وسقف وجدران وباب يغلق .

تركهم العسكر ينفلتون إلى بيوتهم ليحصدوهم فجراً وهم نيام فى أحضان أهاليهم .

داهمت الشرطة الليلية ، فجر اليوم التالى بيوتاً كثيرة ، كان منها ذلك الخُن الذى استأجره عبد المقصود لأخيه طالب العلم وأمل الأسرة والكفر والناحية .

حجرة وصالة ودورة فى بدروم يهبط ست درجات تحت الأرض ، وتطوع بفرشها كأحسن ما يكون : سرير من الجريد يرتفع عن الأرض، ومرآة على مسمار ، وكرسيان يشغلان المدخل ومنضدة عالية من نفس النوع ، ولم ينس الكليم الصوفى، حمله على ظهره من البلد ليستقبل النازل من الفراش إلى الأرض قبل أن ينتعل «مركوبه» فالشقة شديدة الرطوبة ، والقاهرة بردها موجع ، ليس كبرد بلدهم المفتوحة السموات على رحابة الهواء والغيطان والشمس والغروب والسحر والفجر ، والنسمة التى ترد الروح ، فهواء القاهرة «الساقع» يتسلل إلى نخاع العظام بخسة . يود عبد المقصود لو يقى أخاه ما استطاع ، لكى يعود إلى البلدة معافى بعلمه — هكذا كان يمنى النفس ، ويحلم أن يراه وسط الرجال ينير برأيه ما توطن فى العقول ، مثل عناكب الظلمة والفراغ .

كان وقت الجراية قد حان ، والبريد لا يسعف ، والولد فى أم الدنيا لا يجب أن ينشغل عن الدراسة بالقلق على المصروف .

ركب عبد المقصود القطار عند الفجر ليصل عصر اليوم التالى ، ومن محطة مصر إلى حوارى غمرة ، فركة كعب ، وحمولته ليست كبيرة : «سلة ومقطف وبقجة» وفى أم الدنيا لا أحد يهتم إذا كنت تمشى أو تركب المهم أن كل قرش يجب أن يدخره لمصروف الولد «المتغرب» .

دخل البيت وعبد المعبود غائب ، ربما يذاكر عند واحد من أصحابه ، فالمكان هنا لا يصلح لأن يدعو إليه أحداً ، وضحك فى سره ، خاصة إذا كان سنيورة من بنات الجامعة ، وقال كأنما يخاطب عبد المعبود الواقف أمامه كما يجب أن يقف الولد الصغير أمام أخيه الأكبر .

— «حاسب يا عبد المعبود ، أوعك تطلع من توبك ، بناتنا حلوة وجلدهم رايق وصباحهم حليب قشطة . بس أنت انوى . دانت أخويا وإبنى . انت ناسى يا وله إنى محروم م الخلفة ، دانى شلتك على دراعى لحمة حمرا ياله» .

وطفرت دمعة من عينيه مسحها بطرف إبهامه ، وتلفت حواليه كأنما يخشى أن يكون قد رآه أحد .

– «الرجال فى بلدنا لا يبكون يا عبد المقصود ، البكا للحريم» .

هو يعلم أن هذا ليس صحيحاً :

– «البكا للخلق كلتهم» .

– «أبوك عبد الستار ياعبد المقصود كان دايماً يقول لك : ما تزرش يا عبد المقصود . ساعة لما تحبسك نزلها ، دموعك هى اللى تغسل روحك ، ابك يا عبد المقصود ما تستحيش م البكا» .

لكنه مع هذا ، ومع أن كلام أبيه دستور لا يحيد عنه ، إلا أنه لا يستطيع أن يبكى .

وبكى .

– «عينى عليك يا ولدى من بكى الرجال» .

مدد قامته على الفراش يراقب السقف الأبرص ، لكنه اضطر أن يميل ويتقوقع، فالسرير ليس كالأرض ، ولا هو كسطح الفرن ، الذين صنعوا تلك السراير لم يراعوا المقاسات الصحيحة فجاء ت أقصر مما ينبغى .

طرقات عنيفة على الباب ، ووقع أقدام ، وصليل أدوات حادة .

– فيه إيه يا عبد المعبود . دانا عبد المقصود أخوك . ادخل ، جبت الجراية بنفسى ، إيه الزيطة اللى أنت عاملها دى .

فجأة انفتح الباب على مصراعيه .

أفنديات ببلاطى سميكة ، ورجال بشوارب كثة ومعاطف صفراء وعصى ، وعساكر كل منهم يحمل مقروطة .

– إيه العبارة ؟

صرخ عبد المقصود بالذين اقتحموا المكان واقلقوه من عز نومه :

– جرا إيه . لا احنا مطاريد . ولا علينا تار . ماتفهمونا إيه العبارة ؟

لكن كل شيء في الخُن العطن كان قد انقلب .

صرخ افندي منتفخ ، بدا لعبد المقصود أنه كبير العسكر :

– فين عبد المعبود ؟ أنت عبد المعبود ؟

وأمر جنده قبل أن يسمع الجواب :

– هاتوه .

– وانتوا عاوزين إيه من عبد المعبود ، وكمان عبد المعبود ماهواش هنا .

دفعه المخبرون أمامه .

– ده ده . طب احط هدمة عليّ استر بيها جتتي .

وانفلت من أيدي الذين يحكمون قبضتهم عليه وتوجه إلى كبير العسكر .

– باين عليك أنت الكبير .

رشقه الافندي بنظرة صقر .

– أني عبد المقصود . عبد المعبود بيذاكر عند صحابه .

التفت كبير العسكر إلى رجاله ونهرهم :

– هاتوه . عبد المعبود . عبد المقصود . عبد الفتاح . أهو واحد والسلام صرخ عبد المقصود وهم يسحبونه بالكلسون والفانلا :

– هو انتوا عاوزين عبد الفتاح كمان ، يا داهية دقي ، ولاد أبو زغلة كلتهم . ليه؟ دي كانت حريقة تقيد في البلد .

لطعه مخبر بكف غليظة على قفاه ، وعلقه من ياقة الفانللا حتى انسلبت خارج الكلسون وسحبه ليخرج إلى القاهرة التي تتثاء ب في تلك الساعة من الفجر .

★ ★ ★

كانت ليلة حاسمة فى حياة عبد المعبود ، أو هى ليلة تاريخية كما يقول الرفاق ، أو هى ليلة مصيرية ، كما يقول الأكثر تشدداً .

وبالفعل كانت ليلة مصيرية بصرف النظر عن كل تلك المقولات والتوصيفات .

تجمهر الطلبة فى أوضاع متفرقة يفترشون الأرض بين الأشجار ، يقضون الليل .

كانت حركة من حركات الاحتجاج الجماعى .

قضىّ الزعيم ، وتربع الخليفة على قمة السلطة .

اقتربت زميلة لصيقة الصلة بماهنور حتى أن بعض الطلبة يخلطون عمداً بين اسميهما ، فيقولون ماهنور ذبيه ونبيهة صادق . وكانت الاثنتان تؤكدان بملازمتهما الدائمة لبعضهما هذه المقولة ، فتقول نبيهة:

– لو مشيت من غير ماهنور أعرج .

فلا بأس أن تكون ماهنور صادق الزعفرانى هى توأم صديقتها نبيهة فهيم نبيه زكى ، والعكس صحيح .

اقتربت نبيهة من ماهنور الزعفرانى وهمست بفحيح انثوى فى أذنها:

– شايفة الواد اللى هناك ده ؟ معجب بيكى أوى

وضحكت:

– أصله صعيدى .

وما إن التفتت نحوه حتى زعق طالب :

– يا جماعة إحنا لازم نتحرك ، نمشى فى الشوارع ، نسمّع صوتنا ، الناس لازم يحسوا بينا .

تطوحت فى مكانها بقدها الضئيل ، ووقفت على كومة الكشاكيل والكراسات التى صنعت نتوءاً فى المكان ، وأجابت .

– طب اقعد يافالح ، حنعمل مسيرة ليلية عشان يلمونا والناس نايمة .

ضحك الطلبة وخاب انفعال الطالب ، ورصدتها عيون ، بينما اقترب ذلك الذى عليه العين .

– أنا عبد المعبود .

كشفت شفتاها الرقيقتان عن نتوء الأرنب ، وهى تلقى بنظرة جانبية لها مغزى إلى زميلتها ، وضحكتا .

– تشرفنا .

قال وهو يقبع إلى جوارهما :

– محسوبكم عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة .

اتسع ضحكهما .

– ياه . كل ده .

– تصوروا .

قالها وضحك :

–والآنسة ؟

قالت الأخرى .

– وأنا بلاش .

قال وقد اصطبغت كلماته رغماً عنه بلهجة صعيدية آسرة :

– عارفك ، وأنت عارفة إن أنا عارفك ، وعارفة اللى هى مش عارفاه بالأمارة انت نبيهة بنت نبيه وجدك فهيم بن زكى ، صح ؟

قالت :

– شوفوا الخيبة ، أمال مش باين عليكى ليه ؟

قال :

– المهم مش هى ، المهم أنت مين ؟ من هنا . من مصر يعنى ولا من بلاد الحليب والقشطة والعسل الأبيض .

قالت نبيهة :

– حلمك ع البنية شوية . دى اسمها برضه مستجدة .

– عاوز تعرف اسمى ؟ نتعرف على بعض ، مش كده ، هو ده المطلوب يعنى ؟ – ماشى يا عم ما يضرش ، اسمى : ماهنور صادق الزعفرانى خليل .

– ياه . كل ده .

وارتفعت ضحكات الثلاثة .

وقف نفس الطالب الذى احبطته وصرخ :

– احنا مش قاعدين هنا عشان نتسامر ونكركع .

تحفز عبد المعبود ، لكن يد ماهنور امتدت لتقبض على ذراعه المفتول بكف دافئة ، وقالت :

– ف دى ، عندك حق ، الضحك مفسدة ، لإيه ما تعرفش وما تحاولش ، لأنك مش حتفهم .

وضحك الجميع .

كانت الصبية «مها» ابنة البلدة الصغيرة المرتمية فى حضن الدلتا هى التى تمارس شقاوتها على ابن الجيران – هكذا ، كانت ماهنور صادق فى تلك اللحظة بالتحديد . لكن مع امتداد الليل ولسعة البرد الزاحفة مع الفجر . وذراع الفتى التى امتدت تطوّق الكتفين لينام الرأس أو يكاد على صدر الفتى المشبوب – أطلت «ماهى» الأنثى برأسها تحاول أن تزاحم «مها» وتبعدها عن طريقها ، فهى – الآن – الأقوى .

★ ★ ★

من شارع إلى شارع إلى مقهى يصل الليل بالنهار ، استقر بهما المطاف مع بدايات يوم جديد .

ليس بمقدورها أن تذهب الآن إلى بيت الطالبات حيث تقيم ، فالوقت لم يعد يسمح .

– بيتى مفتوح وفاضى .

افتر ثغرها عن نتوء الأرنب :

– زى ما بيحصل ف السيما يعنى ؟

تلعثم وهو يقول :

– وماله . وهمه احسن مننا ف إيه ؟

وتعثرت الضحكة .

طردت الأنثى الوخم ، وهمّت أن تدعوها لتستجيب ، ماذا يمنع ؟ حاولت أن تخرسها ، قويت ، فهى لا تنهزم بالعناد :

– «منذ فترة وأنت كامنة ما الذى عاد بك الآن ؟ أنا أكرهك !»

– بتقولى حاجة .

تساءل عبد المعبود وقد تخلص من الارتباك .

– لا ، أبداً ، باقول لها تخرس .

– هى مين دى ؟

– بنت الكلب ؟

– بنت الكلب مين ؟

– «ماهى» .

– ودا بقى اسم الدلع ؟

– كان . بس أنا ما بحبوش .

– نرجع ندلعك بيه تانى يا ستى ، يمكن ...

– لأ .

قالتها كمن تبعد عن نفسها خطراً .

– أنا باحب «مها» ياريت تقولى لى مها .

– لا دى ، ولا دى ، أنا حسميكى قرنفلة زى حسنية حبيبة حسان بلدياتنا .

– ياريت .

قالتها كمن تستنجد بحبيبة حسان :

– ياريت ابقى قرنفلة .

ثم أطلت «ماهى» تتثنى :

– وأمشى أدلع أملا القلل .

وانتفضت واقفة وقد وأدت قرنفلة قبل أن تولد ، وانكسرت مها فى داخلها .

– ياللا نروح عندك .

تأهب للقيام ، أخرج من جيبه نقوداً وضعها على المنضدة كما يفعل أبناء القاهرة عندما يسددون حساب المشروبات فى المحلات العامة .

سألت «ماهى» وهى ترفع حقيبتها وكشاكيلها :

– حتسقينى ميه أصفرا ؟

ارتبك الصعيدى داخله وارتعشت شفتاه .

– واللا على إيه . ياللا بينا . ماهياش محتاجة .

وجذبته من يده ليبدأ مشوارهما معاً ، والذى يجىء ختامه اليوم بدعوى التطليق.

استراب عبد المعبود عندما تقدم يفتح الباب ، لم يكن الباب مغلقاً تماماً ، ويبدو كأنه فتح عنوة . استدار إليها ليدعوها أن تتريث ، لكنها كانت قد اندفعت إلى الداخل ، ووقفت تدور حول نفسها فى المكان .

لم يستطع أن يفسر لماذا هى منتشية كل هذا الانتشاء .

فتحت باب الحجرة الوحيدة وطرحت نفسها على الفراش .

اغلق عبد المعبود باب الشقة ووضع خلفه أحد الكرسيين ، وحجراً من بقايا المبنى العتيق وتبعها ليغلق باب الحجرة الخشبى كثير الشقوق الذى يفضح أكثر مما يستر .

عندما خرجت ماهنور من الحجرة تسوى من شعرها الذى تهوّش أمام المرآة المثبتة بمسمار على الحائط بجوار الباب ، كانت ماهى تبتسم منتصرة .

تواترت طرقات خافتة متوجسة على الباب .

اضطربت .

خرج عبد المعبود من الحجرة يصلح هندامه ، ويحجل على قدم واحدة فالقدم الأخرى عارية بلا حذاء ، وفتح الباب .

كان الشاب نفسه الذى احبطته ماهنور مرتين فى الليلة الفائتة ، يتلفت فى كل الاتجاهات . نظر إلى ماهنور نظرة لم تستطع تفسيرها ، وقال بلهجة آمرة :

– ياللا قاعدة هنا تعملى إيه ؟

ولعبد المعبود :

– وانت ، شوف لك تصريفة ، اتصرف ، أصلهم بدأوا بدرى المرة دى، الظاهر لموا كتير .

وخرج تتبعه ماهنور لا تدرى إلى أين .

وكما لقنه الزملاء من قبل ، اعدم كل ورقة تؤدى أو لا تؤدى إلى شىء .

فتح الباب بتريث ، ومد ذراعه من خلف ظهره يوصده وراءه .

تقدم نحوه الجار الذى استعاذ بالمسجد منذ صلاة الفجر حتى طلع النهار من هول ما رأى لأخيه عبد المقصود .

فهم عبد المعبود الرسالة وعقد العزم على أن يفك أسر أخيه .



فى مكتب المباحث العامة ، ابتسم الضابط فى وجهه وهو يقول :

– احنا مش عاوزينك ، وكمان ما عندناش واحد بالاسم اللى بتقول عليه ده . اسأل فى أماكن تانية .

ذهب إلى المبنى الذى تشغل نيابة أمن الدولة طابقاً منه فى وسط المدينة ، منعوه من الصعود إلى المكاتب ، تجمهر مع أهل المقبوض عليهم ، أحد الآباء المتمرسين ترجم له الرسالة ترجمة صحيحة :

– همه كانوا عاوزينك وصرفوا نظر ، ليه ؟ ما تسألش ، تلاقيهم راميين اخوك دلوقت فى الحجز بتاع القسم اللى انت تابع له ، روح حتلاقيه هناك . اسمع كلامى.

وما إن تأهب عبد المعبود لتنفيذ النصيحة حتى قال له الرجل :

– خد بالك ، بص وراك كويس وانت ماشى . حرّص منهم كويس .

لم يكترث وذهب ليخلص أخاه .

فى القسم بمجرد أن تقدم عبد المعبود بالسؤال ، أفرج عن عبد المقصود بالضمان الشخصى .

توطن لدى عبد المقصود أن عبد المعبود يمشى فى السكة الصح ، فكلمته مسموعة ، هكذا . وهى رواية لابد أن تحكى عندما يعود إلى البلد .

★ ★ ★

رقصت علامات استفهام وتعجب ، ترسم ملامح ريبة أمام الزملاء الذين شاركوا أخاه تخشيبة القسم عن معنى استجابة المباحث السريعة لعبد المعبود . وتنقل بينهم سؤال :

– لماذا يستجيب هؤلاء لعبد المعبود ، بالتحديد ، وبهذه السرعة ، ماذا يمثل عندهم . وما هو الدور الحقيقى الذى يقوم به ؟

قال أحد المحبوسين بتهمة تبديد أمانة :

– حركات قارعة ، ما تدهمش فرصة يوقعوا بينكم .

سأل أحدهم :

– نفهم انهم يسيبوا الرهينة لما الشخص المطلوب يظهر ، إنما يسرحوا الاثنين مع بعض ، هو ده اللى يزرع الشك .

قال الرجل :

– آديك قلتها : يزرعوا الشك ، خليهم يزرعوا بس انت ما ترويش الزرع اللى زرعوه ، لأنه زرع شيطانى . اقلع البذرة من دماغك اضمن، صدّق أخاك ، أكيد أنا أعرف اكتر منك . لامؤاخذة .

★ ★ ★

لم يدر أنه ظل ساكناً فى مكانه ، شاخصاً إلى السقف ، وكأنه شاشة سحرية تعرض مشاهد من حياته بترتيب ممل كأنما يخشى أن يفلت منه السياق ، فتبدو غير مبررة . لكن المفتاح الذى أدارته الفتاة الفلبينية فى الباب وقدومها بالصخب الذى اعتادت أن تحدثه انتشله من السباحة فى ذلك البحر الذى لا نهاية له .

ألقى نظرة على ساعة معصمه فوجدها قد تجاوزت الخامسة ، وها هى تعود كما اشترطت على وعد أن تبيت ليلتها ، لعلها تعرف حكايته فى هذا اليوم ، وبدا وهو يستقبلها وكأنه يعافها ، لكن إلحاحها على الجلوس أمامه على الأرض كعادتها مسندة مرفقيها على ركبتيه والحديث على غير طائل بلغتها الانجليزية الفريدة والتى لا يفهم معظم ما تقوله بها ، نقل إليه إحساساً بالارتياح ، لعلها تستطيع أن تنزعه من نفسه ، وتفض ذلك الاشتباك الذى قام بين الأيام التى مضت وحاضره الذى ضاعت منه ملامح المستقبل .

اخرجت الفتاة ، زجاجة تعودت أن تأتى له بمثلها كلما أمضت ليلتها معه ، وهو أمر محرم فى هذا البلد ، النواهى الأميرية تقضى بألا تحتسى الخمر ولا تعاشر النساء ، ومع هذا فهما الأمران الأكثر شيوعاً – بحكم المخالفة – وكانت الفتاة تستطيع فى كل مرة أن تسرق زجاجة من مخدومها ، وهو من مواطنى الدرجة

الأولى ، فهو يحتفظ بخزينة ممتلئة بصنوف متنوعة من هذا وذاك ، لا يعلم بأمرها إلا هو وتلك الفتاة التى إن افشت سره ، وجدت نفسها مجردة من كل ما تملك خارج الحدود ، بينما قد لا تطوله حتى لومة عتاب ، ولأنها مثلها مثل كل مواطنيها القادمين لأداء الأعمال الدنيا فهى لن تتفوه بكلمة .

حتى عبد المعبود رجلها الأثير فى هذه الوحشة ، والذى لم تعد تتقاضى منه مقابلاً ، لا يعتنى بسؤالها ، فهو يعرف أنها ستكذب مثل كل النساء .

فتح لها الباب فى المرة الأولى . عرضت نفسها ، فحصها بعين شبقة وقَبِل العرض ، ودفع المقابل ، لكنها فى المرة التالية ، وكانت قد التحقت بخدمة هذا الأخير لم تطالبه بشىء ، اللهم إلا أن يحفظ سرها . فمخدومها لا يقبل أن يشاركه مواطن من الدرجات السفلى الطبق الذى «يَلَُغُ» فيه .

سألته ، هل يريد أن يأكل شيئاً ، تذكر أنه لم يضع لقمة فى فمه منذ خرج صباح اليوم .

أكل بشهية مفتوحة ، تمنت لو يفرغ طاقته المحبطة عندها ، فالذى تدركه الآن أن صراخ العاطفة هو الأعلى من صراخ المعدة الخاوية .

سألها تفسيراً ، لم تستطع ، قالت :

– أنا أعرف هذا فقط ، ولا أعرف زيادة عليه الذى قال لى لم يشرح..

وأردفت :

– قال يومها ، وكنت أوغل فى الطعام مسلوبة الوعى : الذى يكثر من استخدام الألفاظ البذيئة فى حواره مع الآخرين يكون محروما جنسياً ، والذى يأكل بنهم بخلاف طبيعته ويكثر من تناول المواد الحريفة يكون محبطا عاطفياً .

وضحك ، أول ضحكة فى ذلك اليوم العبوس . إذ لم يتصور أن يكون فيلسوفها ذاك جاد فيما قاله لها ، ولا يمكن أن تكون هى مقتنعة بما ادعاه عليها من علم ، بالتأكيد استغل ذلك الجهول جهلها أو انبهارها وصاغ لها هذه العبارات ربما على سبيل التسلية ، أو على سبيل الادعاء .

مدت يدها إلى الشريط الملقى على المائدة وقالت :

– آه .. صوت الحبيبة جاء من القاهرة ، لعلها تكون هى السبب ، أريد أن أسمعها وهى تبث إليك أشواقها ، أريد أن أسمع صوت امرأة مصرية تحب .

أمعن النظر إلى وجهها طويلاً ولأول مرة يكتشف أن به ملاحة ودقة صُنع رغم تقدم أسنانها خارج النطاق المرسوم لها ، فتخالها دائماً وكأنها تفتح فمها لا تملك أن تغلقه .

وبدا وكأنها لمحت فى بريق عينيه ما أثلج صدرها ، فنهضت من جلستها أمامه على الأرض لتقبله ، وقربت جهاز التسجيل لتضع فيه الشريط . أوشك أن يمنعها ، لكنه قال فى نفسه :

«لم لا» لتسمع : «اللى فى الريش بقشيش» .

انساب صوتها ، تهدل كحمامة ساعة الإخصاب . فى الخلفية ضجيج لم تلبث أن أعلنت عنه ، الشلة مجتمعة عندها ، هـا هـو صـوت نبيهة يتقدم ، إنه يعرفه جيداً .

همت الفتاة أن تتكلم ، نهرها . فمن خلال الشريط تناهى إليه صوت أغنية .

هذا المغنى يرتبط عندها بحالة وجد ، تجىء دائماً خارج النطاق .

– «احنا مش حنخلص بقى من صاحبنا اللى ما بنفهملوش كلام ده»

قالها ثم اردف بصوت مسموع :

– نخلص ولا ما نخلصش . ما حنا خلصنا واللى كان كان .

اعترضت بانجليزيتها الفريدة تطلب منه أن يكون حديثه معها بالانجليزية ، لأنها لا تفهم معظم ما يقول .

شوّح فى وجهها :

– يعنى اسم الله . انا اللى باعرف انجليزى .

أجابت بعربية مشوهة :

- لا . انت بتعرف انجليزى .

ضحك واحس أنه يود أن يهبها قبلة ، لكن ضحكة ماهنور انطلقت عبر جهاز التسجيل ممطوطة منغمة . أنصت لم يفهم الكلمات السريعة التى قيلت بهمس ، هذا الصوت لم يعتده . اعاد الشريط ليعاود السماع. ووقف لينحنى على الجهاز ، انصتت الفيلبينية معه ، كان الصوت همساً كالفحيح ، قالت الفتاة :

- المدام بيحب .

وأطلقت ضحكة

صفعها .

وقفت تلملم أشياء ها .

جذب رأسها إلى صدره وقبل شعرها .

بلون الليل وبنعومة مخملية آسرة هذا الشعر ، كيف لم يلحظ ما فيه من جمال إلا الآن .

التصقت الفتاة ، أبعدها برفق ، لم تستجب ، رفع وجهها إليه وقبلها على وجنتها وجلس .

انتصبت أمامه مخدرة .

- لا تفعلها ثانية .

يعرف كيف يصوغ الإجابة بالانجليزية هذه المرة ، لكنه لم يجب .

لم يعد مجدياً أن يسمع شيئاً وهذه موجودة كالقرد ، تتقافز حوله .

- اعطنى من هذا الشىء .

وأشار إلى الزجاجة ، صبت له وصبت لنفسها ، تجرعت كأسها دفعة واحدة ، تذوق بطرف لسانه :

- إيه ده ، مية نار .

- لا . كونياك .

- فى الحر ده ؟

قالت ما يعنى أن هذا هو ما طالته يدها واستطاعت أن تخرج به .

- لا بأس .

فليطفىء الرمضاء بالنار .

أرادت أن تفهم بماذا يتمتم قال :

- أقول لك . مابدهاش . ياللا . وداونى بالتى كانت هى الداء .

وجذبها من ذراعها يسحبها على الأرض خلفه .

★ ★ ★

استيقظ فى الصباح على الفتاة وهى تهزه لأن جرس الباب يرن بإلحاح وهى لا تريد أن تفتح فى مثل هذه الساعة من النهار .

كان الطارق ، موظف الأرشيف بالجريدة ، قال على عجل :

- كنت فين ا[illegible]رح ، قلبوا عليك الدنيا .

- والدنيا دى حدودها ما وصلتش لغاية هنا ولا إيه ؟ مانا فى البيت مخمود أهه.

- عيان ، لا سمح الله ؟

- زى كده .

- طب قول يا أخى ، داحنا ف غربة ، نجيب لك دوا ، نعرضك على حكيم .

- الطبيب ربنا .

قالها وزفر بشدة .

- ياه . دانت حالتك صعبة . مش مرض جسمانى ده بقى .

وحاول أن يضحك .

لكن عبد المعبود قطع عليه مواصلة الضحكة ، وهو يقول :

– زى كده ، برضه .

انتقل الرجل إلى سبب الزيارة المبكرة ، فقال :

– على فكرة ، نقلوك الأرشيف .

– المسألة كده بقى .

– أحمد ربنا لوماكنتش أنا مسافر وحتاخد مكانى . كنت زمانك فى الباى باى .

– وجابوا مين اسم الله فى المعمل .

– واحد من اخوانا النطيطة .

– وامتى حستلم ؟

– دلوقت . أمال أنا جاى لك ليه .

– ماتفرقش ، معمل تصوير ، أرشيف معلومات ، أرشيف صور ، استعلامات ، بواب ، كله عند العرب صابون .

ارتفع صوته وهو يتساء ل بجدية :

– همه مش عرب برضه ؟

انتزع الزميل نظرة فضولية إلى الداخل ، وقال وهو يغلق باب السكن خلفهما :

– مش تقول يا أخى إنك كنت عيّان . انا لمحت عياك وهو ماشى فى الشقة والله مش بطال . مش كنت تعزمنا نعيا معاك ولو مرة .

قال عبد المعبود فى سره :

– «لمونة فى بلد قرفانة» .

وانزوت ابتسامة على شفتيه :

- «لمونة ولا قرنفلة ماهه كله أول ما يرعرع يمد بره» .

قال زميله :

- بتبرطم بتقول إيه .

استعار كلمة بشارة واكيم التى ذهبت مثلاً :

- عم بغلوش مع حالى .

ثم أردف وهو يستغرق فى ضحك بدا لا مبرر له مقتبساً من يوسف وهبى هذه المرة :

- قرنفلة . لحن لم يتم !

وضحك الزميل على ضحكه المتصل ، وإن لم يفهم .

فالضحك كالتثاؤب كالرشح كالحمى ، ينتقل من واحد إلى آخر . وأردف :

- «وكالنساء أيضاً» .

- «زى فوطة الحمام كل ساعة ف وسط راجل» .

قالتها أمه ذات مرة ، عندما أراد أن يلقى عندها بهمه من وراء ظهر أخيه ، ولصقت فى ذهنه تضرب دماغه . هاجس كامن كان يقول له : «اخلع الفوطة المشاع من على وسطك وابرك فى مربط آخر» . لكنه لم يسمح لهواجس النفس أن تقوده . ها هى الهواجس تصدق . الآن هو المفعول به ، لا الفاعل .

- «واأسفاه» !!

وماتت الضحكة بالسكتة ، وظل الوجه العبوس يتقدم معه خطوة خطوة ، حتى بلغا مقر الجريدة .

- «مسكين الغربة تعمل أكتر من كده» .

كتمها الزميل فى صدره . وتَقَدمه إلى مكتبه الجديد فى قسم الأرشيف بالبدروم.

★ ★ ★

فى المساء ، لم ينشغل بفلبينية أو غيرها ، توحد مع الرسالة والإعلان والشريط، أراد أن يفهم .

فتح الرسالة ، نظر إلى التاريخ ١٥/١٢ .

بسط الإعلان بالجلسة . تاريخ الإعلان ١٥/١١ .

قارن بين التاريخين ، أعاد المقارنة .

– «رسالة الحب التى صاغتها بنفسها ، تأتى بعد طلب التطليق بشهر كامل» !!

.

– «شهر كامل من قلم المحضرين ومين عارف وزارة الخارجية كمان ولا لأ ، عشان تكتب لى بعدها – معبودى الخائن ..» .

– «تعال ، قرنفلتك مش لاقية حد يرويها ولا حتى يشم ريحتها . كل يوم ألبس واتزين وانتظر حبيبى ، اللى مش ناوى ييجى . تعال وارجع تانى ، ما قلناش حاجة، ع العموم أنا مسجلة لك بصوتى نداء بالعودة. اسمعه وحتعرف أد إيه أنا مشتاقة لك ومحتاجة لك» .

بحركة لا إرادية وضع يده على زرار التشغيل بالجهاز .

انبعث نفس الضجيج ، ثم جاء صوتها .

– «أنا تعمدت أنقل لك الزيطة والزمبليطة اللى عاملينها العيال دول قبل ما أقول لك أى كلمة» .

وطغى صوت المغنى من جهاز تسجيل آخر . «عيرتنى بالشيب وهو وقار» .

– «يا ترى بتغنى الأغنية دى لمين دلوقت يا ماهنور» .

عاد الصوت يهمس ، اصاخ السمع ، لم يتبين له ملامح ، تسلل فحيح صوتها يهمس :

– «لا . قرنفلة دى مش لك . قرنفلة دى بتاعت حسنية اللى سارحة على شط بحر الهوا» .

وتضحك ضحكة مكتومة .

صرخ وهو يقفز من مقعده :

– ايه ده . وهى باعتالى الشريط ده ليه ؟

وعادت للهمس :

– حاضر يا سيدى . أنا جاية حالاً .

ثم يختفى الصوت ولا تصل له منه إلا نمنمات لا ترسم حرفاً .

– «آسفة يا معبودى . البت نبيهة دى أصلها مجنناني هى وابنها ده اللى اسمه بيتر . شايلة يا سيدى على قلبها جهاز تسجيل فرحانة بيه . وآل مدورة لى اسمه ايه ده ، عشان تفكرنى بالذى مضى ، شفتش رزالة بعد كده .

– كدابة .

قالها وهو يصرخ منتفضاً ، يضرب الجهاز بقبضته ، فيقع مغشياً بعيداً والشريط مازال يهذى .

قال الصديق العائد من الأجازة فى أرض الوطن على الطريق :

– دى كانت يا راجل حتأخرنى عن ميعاد الطيارة . آل قعدت طول الليل تسجل، وما حبكش تكمل التسجيل إلا ساعة لما رحت آخده تانى يوم والسيارة واقفة فيها العيال وأمهم ، عشان يوصلونى المطار ، خطفته من إيدها وجريت ألحق الطيارة .

★ ★ ★

– «لا لم يعد فى الأمر مفر – لا أستطيع أن أمكث أكثر استمع لهذا الهذيان . ولا أعرف هل : أنا رجل مرغوب أو مرفوض .

كان هذا اليوم ، هو الآخر ، يوماً مصيرياً تاريخياً حاسماً ، نقطة تحول خطيرة، منعطف حاد .

– «كل ما عندكم من أوصاف قولوها ، ياأيها الرفاق الذين مازلتم توغلون على مائدتى تنهشون ما طاب لكم النهش ، وتتجشأون» .

– «كان مجيئى أصلاً إلى القاهرة غلطة كبيرة ، بدأت منذ خمسة عشر عاماً ، وما زال الخطأ يتورم مثل سرطان المثانة» .

– «مالها بلدنا ، فيها نساء ؟ نعم ، لكن كأمى . وفيها بنات أيضاً أجملهن حسنية . العمل ؟ مـــاله العمل : فى الزرع أو فى القلع أو حتى فى أعمـــال الدريسة !؟» .

– «تقول ذلك الآن يا عبد المعبود ، أين هذا الكلام يوم خيّرك أخوك عبد المقصود بين الاستمرار فى حياة الكفر تعيش عيشتهم وتأكل أكلهم وتنام نومتهم ، وبين أن تسافر إلى القاهرة بعد أن حصلت على الثانوية العامة ، تدخل جامعتها ، تتغرب ، لكى تزداد نوراً بالعلم لتعود إلى قريتك تزرع فى العقول بدلاً من الحقول ، تبذر بذورك فى أدمغة صغار القرية ، لعلهم يحذون حذوك فيدخل بك وبهم النور إلى بيوتنا» .

– «والله كلامك يا عبد المقصود يا خوى ، زى كلام المثقفين على قهاوى القاهرة، لكن ده مافيهش برودة التنظير والتقعير ولا بلادة الاسترخاء والرؤية من الشرفات العالية ، كلامك جاى م العفوية والأصل الطيب . لكنه يصلنى اليوم بعد الغربة والضياع والفشل والقطيعة . نعم . القطيعة فاكر يا عبد المقصود . هو جريمة يا أخى لما الواحد يحب ويتجوز ؟!» .

– «أى نعم ، تحب وتتجوز ، بس تحب من ناسك وتتأهل من توبك»

– « عندك حق يا خوى ، لو طلت رأسك دلوقيت لقمت من قعدتى الخيبانية دى ، أحب عليها ، بس المسافة بعدت أوى .. أوى» .

– «أليس هذا شكلاً من أشكال الحنين ، أم هو دفاع من النفس ضد تلك الغزوة التتارية التى تهجم عليك بها بنت الترجمان ؟» .

– «ركبت القطار ، ضايقك لبس البنطلون ، رغم أنك كنت ترتديه في ذهابك إلى المدرسة الثانوية بالبندر ، أحسست بالغثيان ، وأنت تركب الحلزونة ، رغم أنك داومت على ركوبها في الروّاح والعودة صباح مساء كل يوم من وإلى المدرسة الإعدادية فالثانوية . ست سنوات لم يصبك الغثيان من ركوب الحلزونة إلا ذلك اليوم يا عبد المعبود . اهتزاز القطار الرتيب أصاب نفسك بالملل ، ولم تعد تتلهى بأعمدة الطريق وهى تمضى فى عكس الاتجاه ، لم يعد يشغل بالك وقتها إلا اضطراب معدتك ودعوتها لك بإلحاح أن تلفظ كل ما دخل إليها منذ الصباح حتى موعد السفر . هل تذكر يا عبد المعبود الفضيحة التى أوشكت أن تحدث فى ذلك اليوم ، ساعة أن داهمتك – الرزّية – ولم يعد مفراً أمامك إلا أن تخرجها فى أى مكان وبأى وسيلة ، إلا سببت لك الفضيحة وربما العار. أى نعم . العار . لكن القطار لم يكن به مكـــان ليقضى الناس فيه حاجتهم ، أو كان له مكان ذات يوم واستولى عليه المسافرون ليجعلوه مقعدة مفتوحة – للرايح والجاى –» .

ـ العار . هو ما يلحق بك اليوم . تضغط عليك الآن تلك القرنفلة التى راح أريجها ، تدهسك بعنفوان أحشائها الحبلى بفضلات الرجال»

– «لا ، عيب يا عبد المعبود ، ليس هذا الكلام من أخلاقك ، ثم لو أنها فعلاً كما تصفها الآن من فرط غيظك ، فأين كنت أيها الفحل الغبى، أو ، البغل البليد» .

– «فقاعة فى الهواء قد تكون مثل باقى فقاعاتها التى سلفت ، ثم تعود كما كانت دائماً قرنفلة فى عروة قميصك» .

– «أفسحت القاهرة ما بين ساقيها وابتلعتك ، تفاعلت مع ما فى أحشائها من فضلات مع العصارة الحمضية ، ثم ها هى تفرزك نفاية ، مثل غيرك من نفايات أحشاء تلك المدينة الغول» .

– «حقاً ، لقد أثمرت تعاليم الرفاق ، ها أنت تستخدم الفخم والغليظ من الألفاظ، لتطرد من نفسك فحشها ، لتغسل النفس بالكلمات ذات الترديد العالى ، وتصبح شهيداً ، هكذا رأيتهم يفعلون» .



عادت لتلتقى به كما اتفقا فى صباح اليوم التالى . وقفت أمام مدخل الجامعة الأمريكية تحمل كشكولاً أخضر اللون ، كانت هذه هى العلامة إلى أن الطريق خال من هؤلاء الرجال الغلاظ بمعاطفهم الصفراء .

قضت ليلة فريدة ، ودت لو تحكى كل تفاصيلها لعبد المعبود ، فلقد أصبح من حقه أن يعرف ، أرادت أن تكون له فعلاً ، باللحظات التى تغيب فيها ، بإيماءات النفس ، بمشاهد الرؤيا ، بأحاديث الأصدقاء ، بنوازع الروح .

تململت فى وقفتها ، امتصت كل نظرات الطلبة الذين يدخلون جامعتهم ، لكنها لم تستطع أن تصرف أنظار رجال الأمن الخاص الذين يحرسون الأبواب الأمريكية من ملاحظتها بكثير من الريبة ، تعرف أنه طبع يتطبع به رجال الأمن سواء أكانوا حراساً على أبواب أمريكية أو مصرية أو حتى بوذية .

تقدم منها أحدهم ليسألها ، لماذا لم تدخل ومواعيد الدراسة قد بدأت؟ قالت وهى ترقب الداخل إلى الشارع الضيق من اتجاه ميدان التحرير :

– عشان أنا مش طالبة .

– أمال أنت إيه بقى ؟

– قالها حارس الأمن وهو يمدد فى الكلمات .

أجابت بحسم :

– مش شغلك .

واستدارت إليه بحدة :

– يعنى ماليكش دعوة

– بس أنت ....

ولم تتركه يكمل :

– تحب أقولها لك بالانجليزى ، أنا واقفة فى الشارع يا حضرة .

– ما هه أصل ...

– ولا . كمان عاملين حدود إقليمية من الشارع للجامعة الأمريكية .

نظر الحارس إليها طويلاً ولم يحر جواباً ، وبدت كما لو كانت تفرغ شحنة مكبوتة .

فبالأمس شاركت شاباً غير عبد المعبود فراشه ، حقيقة كان الفتى هياباً وخجولاً بشكل أثار حنقها ، باتت رغم السخونة التى تفح من جسد الشاب الممدد إلى جوارها ، وفحيح أنفاسه التى تلهب ظهرها ، باتت مقرورة ، لم يغمض لها جفن . ليس فى المكان إلا سرير واحد وغطاء واحد ، وليس فى مقدور أى من الاثنين أن ينام واقفاً ، اشتركا فى الفراش وفى الغطاء . اختفت مها وماهنور وماهى ، لم تظهر واحدة منهن لتحدد سلوكاً بذاته فى هذه الليلة ، حتى الفتاة القرنفلية ، لم تكن موجودة فى تلك الليلة .

لعلها اقتبست روحاً نضالية أو أوروبية فى تلك الليلة ، لكن ممن ؟ اعتادت أن تعرف صويحباتها الكامنات تحت هذا الجلد الرقيق واحدة واحدة وأن تتحاور معهن، تغلبهن أو يغلبنها ، وتعطى لكل منهن اسماً . أما تلك التى صاحبتها هذه الليلة ، لم ترتسم ملامحها ، ولم تعطها اسماً ولا وصفا ولم تحدد لها سلوكاً .

لعل هذه الفتاة هى «نورا» التى اخذ فتى تلك الليلة يناديها بها منذ التقيا . ربما كان هذا ميلادا جديدا .



تقدم من أول الطريق ، بدا فى مشيته وكأنه يحجل على قدم واحدة ، دققت النظر . هل هذه هى مشيته الطبيعية ؟ إنها مشية مضحكة على أى حال . أم أن قدمه التوت منه وهو قادم إليها ؟ اتسعت ضحكتها وهى تتصور أن له قدماً أقصر من الأخرى .

دخل عليها مندفعاً ومد يداً قوية يمسكها بها من ذراعها ، ويجذبها للتحرك بسرعة ، وهو يقول فى تزامن منفعل :

– بتضحكى على إيه ؟

لم تجاوبه «صد نفسها» ، اعتزمت ألا تقول له شيئاً عن ليلة الأمس ولا عن أى ليلة ، فتلك كانت ليلتها هى . سرها معها هى فقط ، وستبقى الليالى الأخرى ، لياليها هى ، ملكاً خالصاً لها ، لن يشاركها أحد ولن تشارك أحداً . دارت عن نفسها ما تعمدت إخفاءه عن الليلة «التجربة» ظلالها وأبعادها وحواشيها . بترت منها أجزاء كما يفعل مقص الرقيب مع كل إبداع فنى .

واستراحت للوصف الأخير .

استقبلها صاحب المكان ، فيه ملاحة غاضت فى ضبابية الضوء الكليل الذى تسلل من وراء ستارة من خيوط العنكبوت .

قفز ذلك الكائن الصغير ، بحجم قبضة اليد يضرب الصدر .

كان عليها أن تقضى ليلتها حتى يدبر لها الرفاق مكمناً أكثر أمناً ، إن كانت مطلوبة .

حاول الشاب أن يخفى اضطرابه خلف عبارات ودودة ، نقل إليها شحنة من الاضطراب .

– ليس عندى إلا فراش واحد وغطاء واحد لى ولك .

قضت الليلة مقرورة تتكور حول نفسها ، لم يتطرق النوم إلى جفونها .

تمدد الفتى إلى جوارها ، سحب طرف الغطاء ، أعطاها ظهره ، مضت ساعات من الليل ، استدار ، التحم صدره بظهرها . شاع الدفء.



جرى وراء الأوتوبيس الذى تحرك من محطته متجهاً إلى الجيزة ، ولم ينتبه إلى أنها تجرى وراءه حتى فاتته السيارة وتوقف لينتظر غيرها .

قالت له بحدة :

– ما فكرتش إنى ممكن ما اعرفش أنط الاتوبيس وراك .

أجاب باقتضاب :

– آسف .

– وما فكرتش تسألني ، عملتى إيه إمبارح .

– عارف .

– عارف وساكت .

– ومنتظرة منى أقول إيه يعنى .

– مبسوط . زعلان . قلقان . غيران .

– ولا حاجة من دول .

قالها بعدم اكتراث واستدار يستكمل طريقه إلى محطة الاتوبيس .

مضت تتبعه وقد أثارها أن يمشى معها بهذه الطريقة، كما لو أن حسانا هو الذى يمشى فى المدينة تتبعه حسنية .

قالت فى نفسها :

ـ «لا ياسى عبده. إذا كنت حتقول علىّ قرنفلة، فأنا أول قرنفلة لها شوك» وكان الاتوبيس قد دخل المحطة. وكان عبد المعبود قد انحشر بين الصاعدين وهى لاتزال على أسفلت الطريق بين المتزاحمين للصعود. سبقت يده حركتها لتمضى بعيداً، امتدت يده وهو على سلم السيارة ليرفعها فى الوقت الذى حرك السائق سيارته ليترك المحطة .

جرت ماهنور إلى جانب الاتوبيس وهى متعلقة بيد عبد المعبود، حتى رفعها أحد المارة، فوجدت نفسها فوق السلم يحيطها معبودها بذراع قوية .

★ ★ ★

كان اللقاء فى بيت أحد الطلبة، هبط من السيارة وسط الناس كما صعد إليها دون أن يقدم لها أى مساعدة حتى كادت أن تتعثر فى الهبوط ـ أيضاً ـ صرخت فى وجهه وقد توقفت تماماً عن الحركة :

ـ أنا مش جاية معاك ياجدع أنت، قبل ماتقول لى ساحبنى على فين كده زى ماتكون ساحب بهيمة أهلك وراك .

ـ طب بس ماتقفيش كده زى البهيمة الحرنانة .

قالها بيسر وسهولة من أصبح من حقه أن يقولها، واستدار ليستكمل طريقه إلى شارع جانبى ثم إلى حارة فعطفة فزقاق، وتوقف أمام عتبة بيت يختنق فى ضوء النهار الذى لا يجد طريقه إلى هذا المكان .

جاهدت لتدركه :

ـ كويس، إنك افتكرت تنتظرنى .

لم يجب وصعد درجات قليلة مهترئة، تفوح رائحة العطن من حولها، حيث سقطت فى بئر ظلام أوقعها على أول الدرجات .

★ ★ ★

كان اجتماعاً دعى إليه عدد من الطلبة والطالبات، ممن تصفهم أجهزة الضبط والإحضار بفئة قليلة مندسة .

هذه الفئة لاترى السلطة غيرها إذا ماتحرك الطلبة، أو تجمع العمال أو تذمر الموظفون. دائماً هناك فئة قلية مندسة، ضئيلة العدد لكنها قوية التأثير، وهو عزف نشاز على وتر مشدود، فليس معقولاً أبداً أن تفقد كل طبقات الشعب قدرتها وتسلم قيادها وتضع نفسها تحت وصاية تلك الفئة القليلة المندسة تشكل لها تحركاتها، وتقودها وتسييرها، ليس هناك فعل معارض أو مطلب فئوى عادل أو حركة جماهيرية فى اتجاه مطالب الناس، إلا وكانت هذه الفئة التى ليس لها وجود فعلى إلا فى ملفات وأضابير أجهزة الأمن هى المسئولة، هى تصفية حسابات قديمة، وإزالة للغبار عن ملفات وشخوص طواها النسيان لينسب إليها كل تحرك، ولتسرق بادعاء السلطة إرادة الجماهير، وتقف ضد رغبة القاعدة العريضة وتوجهاتها التى لا يمكن أن تكون فى التوصيف الرسمى إلا مع السلطة الحاكمة أياً كانت. وتضلل

الفئات المتذمرة فعلاً، بالشعارات «المضللة» التى تحيد بها عن جادة الطريق الذى ينتهى بالتأكيد تحت أقدام الحاكم الفرد .

وهؤلاء الذين يجتمعون اليوم، لتحريك الماء الراكد، وإحداث فعل ما، هم حقاً فئة قليلة ، لكنها ليست مندسة ، هم طلبة جامعيون ، تعيب عليهم السلطة أنهم يفكرون، ويقرنون الفكر بالحركة، وتتسم حركتهم بالفاعلية والصدق. وقد عمدت تلك السلطة منذ جاء الخليفة ليتربع ، أن تغسل عقل مصر.

ولعله لو أمسك بالقلم الآن وكتب مايجول بخاطره، لأخرج مقالاً صالحاً للقراءة والتأمل والدراسة، ولكن ليس للنشر، لا هنا، ولا فى أى بلد من بلاد النفط التى تصدر فيها أو تصدر عنها على أرض العرب أو فى بلاد الفرنجة صحف كثيرة، ولا حتى فى موطنه مصر، حيث كل شىء يباع ويشترى .

لكن ماله وقد خلع رداء الزوج المهزوم، ليرتدى درع المحارب .

«دون كيشوت» أنت ياعبد المعبود!؟

وضحك حتى استغرب ضحكه، لو سمعك واحد من أهل البلد تقول هذه الكلمة، لظن أنك تسبه بأقذع السباب، مستغلاً جهله باللغات الأجنبية .

لكنه على أى حال، لا هو دون كيشوت، ولا هو «دون» أى شىء إنه الآن وبالتحديد: عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة، الذى أول مافعله خارج بلدته الفقيرة ، التى لم تخرج بعد من شرنقتها القديمة أوّل ما فعله أنه خلع ثوب الكتان وارتدى الملابس الأفرنجية، ولا ينقصه الآن إلا غطاء الرأس البريطانى ولا مانع أن يكون من الفلين الواقى من الشمس، هنا، أو هناك، فالعقول مازالت مستعمرة. والشمس مازالت تضرب الرأس بسياط من لهيب .

ذهب فى الموعد الذى حدده الرفاق فى اجتماعهم، يسحب وراءه ماهنور التى التقت بنبيه يصاحبها الفتى المحبط يسحب فتاة أخرى .

بدأ الطلبة والطالبات يتوافدون واحدا وراء واحد، وهكذا، حتى التفوا كسوار من لحم بشرى يحتضنون قاعدة النصب التذكارى للزعيم .

لقد توطن فى تلك العقول المتشوفة لأمل فى المستقبل، أنه بموت الرجل ماتت كل الأشياء، ولم يعد شعار: «ماأخذ بالقوة لايسترد بغير القوة» يشغل بال الذين يهوِّمون فى فراغ مصر مع سحابات الدخان الأزرق، فباتوا يجأرون من وطأة نعال الاحتلال الإسرائيلى ومن كعوب العسكر التى تدوس على الأمعاء حتى أوشكت عصارة الصفراء الشديدة المرارة أن تسد منافذ الحياة .

كان يوماً مشهوداً، ذلك الذى انتهى إلى احتضان قاعدة النصب، الذى لم ير صاحبه بعد.

بأجسادهم الساخنة يطالبون بالثأر، ويؤمنون بأنه حق مشروع، وأن اليد التى يجب أن تضغط على الزناد، قد مات عزمها دون ذلك .

غابت فى الليلة السابقة أيضاً عن المبيت فى بيت الطالبات، كانت مكلفة بأمور كثيرة يجب إنجازها . قدمها عبد المعبود إلى الرفاق، أوكل إليها الرفاق أموراً، كادت تطير وهى تمضى لإنجازها من على الأرض طرباً، مضت كراقصة باليه نشوانة بالانفعال الذى تحدثه المشاركة .

لم ينم أى منهما ليلته، ماتت الرغبة، لم يكن حيا فى تلك الليلة إلا خوف غامض مدمر من المجهول الذى يأتى به الغد، فأمامهما منذ الصباح حركة دائبة ربما تتواصل بالانفعـال حتى مشارف الخطر، أو، ربما تسقط فى مستنقع الخطر نفسه .



التقت الجموع الصاخبة فى فناء الجامعة، وفى أروقتها، وعلى أبوابها وفى الشوارع المؤدية إليها .

كذلك ترصدت قوات الأمن بمسمياتها العديدة، مجهزة بالعربات المعدة خصيصاً لمقاومة مثل هذه التجمعات ، ترصدت المجتمعين يجأرون بالمطلب الذى ساد، وتقدم على جميع المطالب: «الحرب، الحرب» .

وقف طالب، على اكتاف طالب، وسط طلاب يحيطون به كالسياج، ليهتف هتاف البداية. وتقدم محمولاً .

انتظمت أعداد غفيرة تجتاز سور الجامعة إلى ميدان العباسية، تنادى بأن «مأأخذ بالقوة لايسترد بغير القوة» .

فى الطرف الآخر، فى قلب مدينة الجيزة كانت جموع حاشدة من الطلبة تجتاز بوابات الجامعة الأم، ويتدفق الطلبة من كلياتهم المتناثرة نهراً واحدا إلى ميدان الجيزة، يجتازون كوبرى المنيل إلى كلية الطب، ومن شارع قصر العينى إلى ميدان التحرير .

امتصت الشوارع الجانبية جموع الطلبة الذين تفرقوا مع بدء الاشتباك إلى حيث يتجمعون، ومع غروب الشمس كانت الأجساد المنهكة الزاحفة من الاتجاهات الأربعة تلتف حول قاعدة النصب التذكارى تغنى: «ياجمال ياحبيب الملايين» .

كانت أنشودة الوداع العفوية، هى هديل الطلبة حول القاعدة الحجرية التى هيأت لاستقبال البطل، تتلاحم أجسامهم ويحتمى بعضها ببعض من هول الصقيع الذى يتقدم مع اقتراب الليل من النهار، مشهداً آسراً.

الناس فى الميدان وفى الشوارع المحيطة أخذتهم حمى الحماس، وخفقت قلوبهم، لابد من تدفئة أكبادهم الذين يواجهون - بتفويض غير مكتوب منهم - الصقيع النابع من الفراغ، ومن خلو السماء فى تلك الليلة الشتوية القارصة .

حمل كل فرد من سكان الميدان ومايحيطه، غطاء يطرحه فوق المجتمعين تحت أقدام الزعيم الذى غاب حتى عن تمثاله الحجرى، وبدت الأجساد البشرية من أبناء مصر هى النصب التذكارى الذى انتصب فى تلك الليلة، متدثراً بالدفء القادم من البيوت. وبدأت محلات المأكولات التى لم تغلق أبوابها صنع الطعام وتقديمه للملتفين حول أقدام الزعيم الغائبة يقرصهم البرد مع الجوع.

وكان صباح آخر .

الشمس تسطع من موطن شروقها .

بعض الغافلين الذين كانوا نياماً يبدأون يوماً جديداً .

ولم يعد مسموحاً أن يستمر الاعتصام بقاعدة التمثال الحجرية. والذى بدا للسلطة أنه شروع فى احتلال الميدان .

ومع بدء الهجوم، انفرط عقد المعتصمين .

★★★

تجاوز الوقت منتصف الليل، وتنبه عبد المعبود إلى صوت جهاز التسجيل، وهو يحدث خواراً انتزعه من الاستغراق، وكأن تلك الأوراق الحاسمة قد استدعت كل مافات، ليتسلسل أمامه فى شريط مرئى، لا يقدر، صانع بارع أن يصنع مثله .

بلمسة من إصبعه، أخرس ذلك الصوت الذى يصدر فحيحا كحشرجة امرأة تتلون بالرغبة .

ماذا لو أعاد قراءة الرسالة، إنه لن يتمكن من النوم على أى حال .

كعادتها فى كل مرة، رصت قائمة بالطلبات .

ألا يتوقف نهمها إلى كل شىء، لقد تحولت تلك المرأة إلى حيوان قارض ، وهى التى كانت تقول كلاماً عالياً عن سلوكيات البشر التى تبدلت وعن الناس الذين لم يعودوا إلا معدة تستهلك نفايات الاسطول السادس .

هكذا ياماهنور .

«هكذا، فى تلك الليلة انتزعنى أولئك الأقوياء من بين ذراعيك الى تلك الزنزانة الانفرادية فى سجن القلعة، التى سبقنى إليها مماليك وسلاطين ورفاق من الحرس القديم» .

وضحك للكلمة الأخيرة، لم يدر لمَ ؟ لكنها لم تكن سخرية على أى حال .

«لم يكن قلبى مشغوفاً إلا عليك فى تلك الليلة، وذهنى لم يكن به الا صورتك وأنت تفزعين إلى ذلك المسمار فى الحائط تنزعين من فوقه مايستر البدن العارى» .

★★★

لم يستطيعا أن يدلفا إلى باب تلك البناية التى يشغل بدرومها إلا بعد أن بدأت بشائر الظلام .

كادت أن تسقط منه من فرط الإعياء، والركض فى الطرقات، واتخاذ مسالك ملتوية للتقدم مسافة قصيرة والاختفاء فى أفنية البيوت ومداخلها . وأخيراً نجحا فى بلوغ ناصية تطل على مدخل البيت، كان الوقت ساعة الغروب. لينتظرا، لكنها كادت أن تبكى، وبدأت تنزلق على الحائط الذى تسند إليه ظهرها . لم يعد هناك بد، ليدخلا وليكن مايكون .

مسح الطريق بعينيه، خلفه وأمامه وحواليه، صعد بنظراته إلى المنافذ والشرفات، أمعن فى وجوه الجالسين أمام دكاكينهم، ثم دفعها لتدخل، ودخل وراء ها .

حمام ساخن، لو يستطيع لكنه بالتأكيد حلم بعيد المنال، لو كانت تلك حسنية لكان قد أمرها، فقامت تشعل وابور الغاز وتضع صفيحة المياه فوقه، لكنها ليست من ناحيتهم كلها .

- «من أين أنت ياماهنور؟ » .

همَّ بسؤالها، لكنها كانت قد تكورت حول نفسها وراحت فى سبات عميق. عدل من وضعها على الفراش ودثرها بالغطاء الوحيد الخشن، بحث عن لقمة يأكلها، لكن الرفاق كانوا قد أتوا على الجراية الأخيرة التى بات أخوه عبد المقصود من أجل توصيلها له فى التخشيبة. الإرهاق والبرد يضاعفان من وطأة الجوع، لكن لا مفر ليقضم قطعة من الحلاوة الطحينية التى لاتخلو منها جراية، حتى هذه أتوا عليها، ليس أمامه إلا بلاص العسل الذى لم يقربه منذ الجراية الأولى ، ملأ لنفسه كوباً، كان النمل الأسود الفارسى يعوم ميتاً على سطح الكوب، لكن لابأس، فماهنور نائمة لن ترى مايفعل، واخذ ينتشل بأصبعه جثث النمل الأسود الغارقة فى العسل الذى تجرعه دفعة واحدة، لايدرى كم من الأجسام الغرقى دخلت جوفه معها؟ خلع حذاءه وترك قدميه يتدثران بالجورب الذى فاحت منه رائحة مركزة، رفع جلبابه من فوق المسمار، نظر إليه فى ضوء لمبة الكهرباء الذى يتسلل كليلاً من وراء ستار العنكبوت،

وأزاحه بعيداً، لا يمكن أن يرتدى جلباباً لم يغسل منذ أكثر من شهر وينام به إلى جانبها ويحتويها بين ذراعيه، لايمكن .

تمدد إلى جوارها وقد تحرر من البنطلون وابقى على القميص يستر ذراعيه. ألصق صدره بظهرها المتقوس كأنما عادت إلى رحم الأم، شكل انحناءة جسمه على رسمها، تململت، قالت والوخم يغلف كلماتها :

– وبعدين . بأه .

ثم

– احنا مااتفقناش على كده .

أدارها إليه، طوقها بذراعيه، سألت والوخم مازال يغلف صوتها :

– عبد المعبود ؟

– أمال حيكون مين يعنى ؟!

– سيبنى أنام .

تجرأت لمساته .

– عاوزه أنام .

كان حلماً، أوكالحلم. لكنها عندما هجم العسكر، كان عليها أن تستر ما انضوت عنه الثياب .

فى زنزانة ملاصقة من سجن القلعة، دفعوا بها .

أيام وقف بعدها عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة أمام القاضى. قاموا بتفريق المعتقلين من الطلبة .

عبد المعبود وعشرة من زملائه أودعوا سجن الاستئناف، وتوزع الباقون على سجون مصر. ولم يبق فى معتقل القلعة الشهير إلا من أرادوا وجـودهم تحـت المراقبة المباشـرة، أو ، من لمسوا فيهم ضعفاً قد يفيد .

ماهنور صادق الزعفرانى خليل أودعت مع كل البنات سجن القناطر للنساء. وهكذا لم يعد يجمعهما سجن واحد .

يحاول عبد المعبود لا يدرى لم ؟ أن يبعد ذكرى تلك الأيام عن ذاكرته. أفرج عنه عند نظر تظلمه الأول، وقف محام عجوز يتقدم ويتأخر أمام القاضى، يقول كلاماً غير متسق، يشوّح بيديه أكثر مما يتكلم، ويطرح اسئلة أكثر مما يفنّد وقائع .

– مش كده ياأستاذ، حتودينا فى داهية بإذن الله ، هو مين اللى وكله ده .؟

– جه من نفسه، متطوع .

– هكذا ، أجاب زميل فى القفص، شخص القاضى إلى المتهمين وزعق:

– مش عاوز كلام .

قال المحامى الجهبذ :

– مجموعة من أبنائنا وقفوا ياسيادة الرئيس أمام ثلاث جهات كل منها توكل نفسها عن «أمن الدولة». مباحث أمن الدولة. نيابة أمن الدولة. وهاهم الآن يمثلون أمامكم فيما يسمى محكمة أمن الدولة .

وواصل كلامه متسائلاً :

– لكن ياسيادة الرئيس أين هذه الجهات من أمن الدولة المهدد فعلاً بالجنود الإسرائيليين الرابضين على الضفة الشرقية للقناة ؟

تثاء ب القاضى وهو يقول :

– خليك فى الموضوع ياأستاذ .

شمر الأستاذ كم الروب الأسود ، وتراجع للخلف كأنما يتهيأ للانقضاض على المنصة، ثم خطى خطوة للأمام، وشرع يتحدث فى مهمة القضاء الواقف .

همس عبد المعبود لزميله :

– واقف ولاّ قاعد. الراجل بينام منك ياأستاذ .

لكزه زميله بقسوة ليلفت نظره إلى القاضى الذى يرمقهما بنصف عين.

- آه. هذا الرجل ثعلب، فيها استمرار بإذن الله .

وقف القاضى فجأة ليعطى استراحة قصيرة، وأشار إلى المحامى أن يتبعه إلى حجرة المداولة .

مرت اللحظات ثقيلة، خرج بعدها المحامى من الباب الواسع إلى القاعة وهو يشير إلى المتهمين بعلامة النصر .

- تشرشل ياخىّ .

علق عبد المعبود .

اقترب المحامى من القفص :

- إفراج ياعيال، مبروك .

★ ★ ★

أسرع عبد المعبود، يحث الخطى، ليلحق مبكرا قبل أن تنعقد الجلسة التى من المتوقع أن تنظر تظلم ماهنور .

اندفع إلى القاعة، كانت تزدحم بأهالى المتهمين، انقض ببصره على القفص، كان مكتظاً بعدد من الطالبات صغيرات السن وعدد آخر من الشباب، اقترب أكثر، أخذ يبحث بين المحبوسين عن ماهنور .

سألته طالبة عجفاء، استرابت من دورانه حولهم:

- بتدوّر على مين ياأخ ؟ .

- أنت جاية منين .

- من جروبى، حاكون جاية منين يعنى ؟

- ومن أى سجن يعنى ؟

- من سجن النساء يافالح. ولا أنت شايف غير كده.

ضحك الزملاء بينما أعلن الحاجب :

– محكمة !

غرقت القاعة فى صمت، خرج القاضى يتبعه عضوا اليمين واليسار.

إنه ذات القاضى، وهى نفسها ذات الهيئة .

– الحمد لله .

قالها عبد المعبود، وزفر، لكن ماهنور لم تأت بعد، حاول أن يسأل تلك العجفاء، لكن القاعة كانت جنبـــاتها تردد فى اســتقبال هيئة المحكمة نشيد «بـلادى بلادى .... عاوزة ثورة يابلادى».

طرق القاضى على المنصة ونبه إلى الالتزام بالهدوء والنظام .

وتقدم ذات المحامى ليسأل :

– لماذا هؤلاء الفتية والفتيات بالذات ؟.. ماهى جريمتهم؟ هل هم حقاً كما تصفهم أجهزة المباحث ؟ لا ياسيادة الرئيس. وألف لا .

قاطعة رئيس الجلسة قبل أن يستطرد :

ـ عاوزين نخلص بدرى ياأستاذ، يعنى بلاش المقدمات الطويلة دى .

خش فى الموضوع مباشرة، لو سمحت .

وأشار إليه أن يقترب من المنصة ـ اقترب الأستاذ وأنصت بإمعان إلى القاضى، الذى أخذ يحدثه بصوت خفيض، ثم تراجع إلى الخلف خطوتين، بينما القاضى يرفع الجلسة للمداولة .

صرخت الفتاة الشمطاء من وراء القضبان :

ـ عاوزينها علنية، كلام الاوضماينفعناش ياسيادة الريّس. هروَل المحامى إليها مفزوعاً، وسط هرج الأهالى والمتهمين :

ـ اسكتى، الراجل عاوز يمشى بدرى، بنته بتولد فى المستشفى. وبينما يهرول عائداً بنفس الطريقة، صرخت طالبة تسأله :

ـ هى بكرية ياأستاذ ؟

تسرب الضحك إلى القاعة ليصبح فوضى، غنى بعدها سجين: «شيِّد قصورك ع المزارع» .

اقترب عبد المعبود من القفص، وجذب الفتاة الشمطاء من كم قميصها الرجالى، وهمس لهما :

ـ ماهنور ماجتش ليه ؟

قالت :

ـ هو أنت عبد المعبود .

وقبل أن يجيب ، كانت قد دست فى يده ورقة مطوية وهى تقول :

ـ ينيلك بستين نيلة .

ثم سألته :

ـ ماقدمت لهاش تظلّم ليه ؟

انزوى عبد المعبود فى ركن القاعة، وفض الورقة :

ـ «أنا فى مأزق» .

ـ يعنى إيه ؟

ـ «إن ماخرجتش فى الجلسة اللى جاية حتبقى مصيبة» .

ـ ليه ؟

ـ «كان لازم نأخذ بالنا ياعبد المعبود، أرجوك خرجنى بسرعة عشان نتصرف قبل ماالوقت يفوتنا » .

خرج المحامى من حجرة المداولة وهو يرفع للمتهمين أصبعيه بعلامة النصر ، ويقترب من القفص ، ليقول كلمته التى اشتهرت عنه فيما بعد :

ـ مبروك ياولاد . إفراج.

دوت القاعة بالهتاف «يحيا العدل» مختلطاً بنشيد : «بلادى بلادى عاوزة ثورة يا بلادى » بأغنية «شيد قصورك ع المزارع» .

★ ★ ★

أسقطت سيارة التراحيل ماهنور مع زميلاتها الأخريات المفرج عنهن بأمر المحكمة أمام مبنى المباحث العامة

تقدم شاب إلى ماهنور ودعاها للدخول فهى مطلوبة فى الداخل ، لم يكن أمامها إلا أن تستجيب .

فى أحد المكاتب الفخمة استقبلها رجل فخم ، وقف لها ، وتقدم ليصافحها ، وأخذها تحت ذراعه إلى أقرب مقعد .

قال الرجل بوجه باسم :

- أكيد كانت تجربة قاسية بالنسبة لك .

بشعور الفأر الذى تحاصره قطة صيادة ، انكمشت أكثر فى المقعد ، اقترب منها ورفع بسبابته وإبهامه وجهها ، تأمله ، وقال :

- بنت حلوة زيك وصغيرة وقدامها مستقبل ، تعمل كده ليه ؟.

لم تجب .

قال الرجل :

- ما سألتيش نفسك إحنا أفرجنا عنك ليه من غير أمر محكمة ؟

نظرت إليه بريبة .

أردف .

- عشان عارفين ظروفك كويس .

سكتت .

قال الرجل متبسطاً :

– على فكرة أنا عندى بنت فى نفس سنك تقريباً ، فى الجامعة الأمريكية كان نفسها تيجى تقعد معاكو .

– يا سلام !!

صدرت عنها بعفوية .

ضحك الرجل ، وهو يقول :

– ليه لأ ، هى مش مصرية زيكو ولا إيه . أوعى تفتكرى إن أنا شخصياً مش عاوز نحارب ، بالعكس ، بس دى حسابات تانية ، لا أنا ولا أنت ولا عبد المعبود نفهم فيها .

نمت قرون الاستشعار عند ماهنور ، وأصبحت أكثر إنصاتاً وتحفزاً

– اوعى تفتكرى إن فيه حاجة ما احناش عارفينها ، أو غايبة عننا .

انتفضت بفزع :

– زى إيه يا فندم ؟

ربت الرجل برفق على كتفيها ، وقال :

– اطمئنى ، سرك فى بير ، إحنا عندنا ولايا برضه ، مش بيقولوا كده عندكو فى البلد ، ولا إيه .

سقط رأس ماهنور ، وانتكست نظراتها .

وكف الرجل وهو يمد يده لها بالسلام :

– على فكرة . إحنا اللى ممكن نساعدك . بس الأول تعقلى وتحطى عقلك فى راسك . تساعدينا ، نساعدك . مع السلامة .

قال وهو يودعها على باب الحجرة .

– أديك عرفت السكة . ولا إيه .

★ ★ ★

انتظر عبد المعبود غير بعيد عن الباب الرئيسى لمبنى المباحث العامة يرقب خروجها ، وعندما بدأت أولى خطواتها على الطريق خارج الرصيف أسرع إليها ليجذبها من ذراعها فى الوقت الذى توقفت فيه سيارة ، دفعها إليها ، وانطلقت بهما.

سلك سائق السيارة دروباً كثيرة ، وخرج من حوارى إلى أزقة إلى شوارع جانبية إلى شوارع عامة .

صرخت ماهنور :

– مش تقولوا لى رايحين فين ؟

قال عبد المعبود ، بهدوء :

– حتعرفى لما نوصل .

وهمست له :

– أنا عاوزاك ، لازم نتصرف ، أنا واقعة فى مصيبة مش حشيلها لواحدى ، آه، خليك فاهم دى كويس .

وقفت السيارة أمام ذات البيت الذى خرجت منه مع عبد المعبود إلى الأحداث التى تواترت بسرعة غريبة ، وها هى تعود إليه . لماذا ؟ .

انفتح باب الحجرة المطلة على الصالة وخرج رجل سامق ، تجلل رأسه فروة بيضاء .

قال الرجل بابتسامة لا تختلف كثيراً عن ابتسامة ذلك الرجل الفخم فى المبنى الرمادى الجهم :

– كان عاوز منك إيه فؤاد بيه ؟

سألت:

– مين فؤاد بيه ؟

– مفتش المباحث .

قالت مستدركة وابتسامة تزحف على زاوية فمها :

– آه . ولا حاجة . تفتكر حضرتك ممكن يكون عاوز إيه ؟

– يعنى إيه اللى طلبه منك بالضبط .

– راجل طيب .

وبانت السخرية فى تعليقها .

– إزاى يعنى .

وقد التقط الرجل نبرة السخرية .

– عاوز يساعدنى .

– على إيه ؟

– على اللى حضرتك ما تعرفوش .

ورمقت عبد المعبود بنظرة جانبية ، حاول عبد المعبود ألا تلتقى بنظراته .

– زى إيه يعنى .

– ما اعرفش . شوف حضرتك ما تعرفش إيه ، وأنت تعرف .

– احنا ما بنهزرش يا آنسة .

– ولا أنا والله .

قالتها بتحدٍ .

قال الرجل بحدة :

– مرة يساعدوا عبد المعبود ، يفرجوا عن اخيه وما يمسكوهوش . ومرة يفرجوا عنك بدون محاكمة .

وقف عبد المعبود ، وهو يهم بالتعليق .

أشار الرجل إلى عبد المعبود أن يلزم الصمت . وقال موجهاً الكلام لماهنور .

– إيه الأسئلة اللى سألها لك .

– ولا سؤال .

ثم بحدة :

– إيه الحكاية . انتوا بتشكوا فىّ ولا إيه . والله عال . مش كفاية المصيبة اللى أنا فيها .

رمقها الرجل بنظرة حادة ، وأوصد الباب خلفه .



ألم كوخز الإبر كان يغز صدره وهو يتقلب على الفراش لا يستطيع أن يبعد طيفها وهى تتلوى من الألم غارقة فى دمائها .

أخذها من يدها كالشاة الذاهبة إلى الذبح ، وأسلمها لذلك الصديق الذى تولى الكشف عليها وقال بشكل قاطع :

– لابد من جراحة .

فى حجرة بشقة على مستوى الأرض أصبحت سكناً لهما فيما بعد– أحضر الطبيب الشاب الذى لم يحصل على إجازته بعد ، عدداً ومشارط وآلات من المستشفى خلسة إلى ذلك المكان .

وبينما كانت ماسورة الحمام تفرز محتوياتها من الدور الأعلى إلى مسقط النور، ويتناثر رذاذ الماء من النافذة المطلة عليه إلى الفراش الذى تطرح عليه ماهنور متباعدة الساقين ويد الطبيب تخوض فى أحشائها ، كان عبد المعبود يدور على بيوت أصحابه عسى أن يقبلها أحدهم لليلة واحدة ، وفى حومة انفعاله كان قد نسى نبيهة تماماً ، وهى الوحيدة التى احتضنت جسدها المتهالك فى تلك الليلة وباتت تحت أقدامها ، تدعو الله أن يطلع لذلك الليل صباح .

أطل الفجر من فتحة النافذة الموارية ، تحشرج صوت ماهنور :

- أشرب .

وتنفست نبيهة الصعداء .

★ ★ ★

أخذ النوم عبد المعبود بعيداً عن تلك الصور لتتمدد على شاشة العقل الباطن بقعة دم تفترش مساحة السماء وتطغى على السحب البيضاء بلون القطن المندوف وتنتشر ويتسع مداها حتى تصبغ الأفق كله بلون الدم ، ويجد عبد المعبود نفسه سابحاً فيه .

استيقظ مفزوعاً وجلس فى السرير ، لعل النوم غالبه وهو غارق فى تلك اللحظة الدموية التى انتزعت من أحشاء ماهنور رحمها أو كادت .

أنهى ذلك الطبيب عبثه فى أحشاء الفتاة ، واخرج كتلة من اللحم الاسفنجى المشبع بالدماء ، وضعها فى كيس من النايلون وأعطاه لعبد المعبود وهو يقول مرتعشاً :

- اتخلص من الكيس ده .

لم يسأل عبد المعبود ، ولم تسأل ماهنور ، هل انتزع شيئاً آخر من أحشائها ، أم اكتفى بإخراج الجسم ، الجريمة ، من الوعاء الذى كان ينمو فيه ؟

كذلك لم ينطق طالب الطب بكلمة ، واكتفى بأن جمع أدواته التى أخذها خلسة من المستشفى ، ولملم ملابسه ، وهرول ، كأنما يهرب .

بقيت ماهنور يوماً أو بعض يوم طريحة ذلك الفراش ، تتمدد جثة لا تقوى على الحركة ، على سرير أسود بأعمدة رفيعة مرتفعة بلا معنى ، وعلى حشية تقلق نتوءاتها نومها . أمعنت النظر إلى السقف الذى تساقطت منه قطعُ متنوعة الحجم والمساحة ، فبدا كأنما هو مصاب بداء يأكل اللحم ويكشف العظم ، فقد برزت بعض أسلاك حديد التسليح التى تحمل السقف من مواضع كثيرة ، خشيت ماهنور أن تكون سبباً فى سقوط واحد من سكان الدور الأعلى ، وأخذت تنصت بإمعان إلى خطواتهم التى تقتحم عليها المكان كأنما يمشون فوق جسدها .

كان عبد المعبود قد خرج بحجة إحضار طعام ، وتجهيز شقته لاستقبالها ، ولكنه تأخر فى العودة حتى أظلمت الحجرة ، وملأت رائحة المياه العطنة المكان كأنما تتكثف مع الظلمة ، وهومت أسراب البعوض تحدث طنينها الذى يتصاعد مع كثافة الظلام .

لا تعرف ماهنور شيئاً عن هذا المكان ، ولم تستطع أن تتحرك خطوة خارج الفراش ، دفنت رأسها تحت الغطاء ، لكى لا ترى الظلمة ، وباتت ترتعد جوعى ، خائفة ، ومنهكة .



ترك عبد المعبود ، ماهنور مسجاة جثة لا تقوى على الحركة ، وخرج وفى عزمه أن يدبر لها طعاماً ، وينقلها إلى فراشه الذى تكسرت ضلوعه تحت وطأة فحولته وتأودها .

- «كيف تكون ليلة واحدة مقدمة لأمور يصعب حلها ؟» .

- «ليس هذا عدلاً ، لو كانت كل المقدمات تؤدى إلى نفس النتائج ، لكبت الناس جميعاً غرائزهم» .

- «لم تكن نزوة ، النزوة هى أن تقع فى محظور يداهمك الإلحاح عليه فتغيب عن الإدراك والوعى» .

- «هل هى حادثة ؟ - لا ليست حادثة . الحادثة - أيضاً - تقع فى لحظة أو أقل يغيب فيها إدراكك أو وعيك أو توازنك ، شىء من هذا - أيضاً - لم يحدث !!» .

عندما التفت ذراعه يضمها إليه فى تلك الليلة المقرورة فى العراء ، سرت بينهما تلك الرعشة غير المنظورة ، والتى تفتح الطريق إلى الرغبة ، هكذا يدرك تماماً ، تهدُّج الأنفاس يشى بمثل هذه الأمور ، اضطراب الصدر بومضات متحشرجة ، تشى هى - أيضاً - بمثل هذه الأمور ، الخدر الذى يصيب البدن بالوهن هو - أيضاً - يشى بمثل هذه الأمور، دعوة المرأة التى تنطق بها سكتاتها ولفتاتها

وإيماءاتها وفحيح صوتها وعبق أنفاسها ، هى المحرض الحقيقى . إنسان العصر الحجرى الذى يسحب المرأة من شعرها ليأتى فعلته ، يقبع فى أعماق الأعماق ، لكنه يقوى ويتسيد عندما تصل إليه ذبذبات المرأة ، ليست هناك امرأة لاترغب وليس هناك رجل لا يرغب المرأة التى ترغب ، فإذا اجتمع اثنان رجل وامرأة ، ليس بالضرورة أن يكون الشيطان ثالثهما ، الحقيقة الواقعة هى أنه لا يدخل بين المرأة وشريكها طرف ثالث حتى لو كان الشيطان ، إذا كان ثمة آخرون ، فلابد أن يكون موطنهم الأصلى داخل أبداننا .

توقف عبد المعبود أمام هذا التجديف وتساءل :

– «لماذا تحولت ماهنور فى ذلك اليوم المشهود من النقيض إلى النقيض ، من الفتاة المتحفظة ، إلى المرأة التى تتوثب بالرغبة ، لماذا تلّون صوتها وتهدج ولهث وهى تقبل دعوته ؟ هل يجوز أن ينشطر الإنسان إلى نصفين ، نصف يرغب ، ونصف يتحفظ ؟» .

– «إلى ماذا تريد أن تصل . ليست ماهنور بالطبع هى المسئولة الوحيدة ، لم تدفعك ، لا . بل دفعتك ، ألم تطرح نفسها على الفراش ؟ . هــل كان فى مقـدورك أن ترفض تلك الدعـــوة المجانية ، لا ، لا أنت ولا غيرك» .

مضى عبد المعبود يعب فى السير ، وقد هدأت نفسه ، وكأنه بذلك التداعى المتفلسف قد نفى التهمة عنه ، فاستراح .



توقف عبد المعبود بعد أن هبط الدرجات الست المؤدية إلى المكان الذى يسكنه فى البدروم ، فقد نمت إليه أصوات كثيرة تنبعث من الداخل تردد قبل أن يتقدم خطوة ، لم يكد يمضى خمسة عشر يوماً على الإفراج عنه هل يعودون إليه بهذه السرعة ؟ وما هذا الضجيج الذى يحدثونه ؟

لكنه استطاع بعد جهد أن يميز صوت أخيه عبد المقصود .

– «ما الذى يأتى به الآن ، لا نحن فى أوائل الشهر ولا فى أواخره».

مد يده يفتح الباب بمفتاحه ، وإذا بالباب ينفتح تلقائياً ، ويندفع عمه الشيخ عويضة فيصطدم به .

كثرت السلامات والترحيبات والأحضان والقبلات من أخيه عبد المقصود وعمه الشيخ عويضة وولدى عمه عوض وعوضين .

ضحك كما لم يضحك منذ أيام كثيرة ربما ترجع إلى شهور وهو يعانق الشابين، توأم عمه عويضة ، مشكاح وريما ، كما كان الصبيان يداعبانهما فى ساحة القرية.

– «ترى ما الذى أتى بهذه الطغمة فى هذا الوقت العصيب ، هل يسعى أخوه كما ألمحت إليه أمه ذات مرة بزواجه من بنت العم : «صبيحة ؟» .

لكن تساؤله لم يدُم طويلاً ، فقد بادره عبد المقصود لائماً على غيبته تلك الليلة أيضاً ، لعله يذاكر فعلاً مع زملائه ، ولا يذهب إلى هنا أو هناك ، فمصر غيرمأمونة، خصوصاً لشاب مثله ، له فتوته ووسامته أيضاً ، وطلب منه أن يسرع بالاستعداد للطواف بهم على محلات المفروشات والملابس ، لشراء لزوم العروسين ، نبوية أخته على عوض ولد عمه .

لكن القلق لم يزايل نفسه ، ربما تكون هذه الزيجة خطوة لربطه ببنت العم ، أيضا لم يدم تساؤله ، فقد عرف من العم عويضة نفسه أن الفرحة ستكون فرحتين بزفاف نبوية على عوض وصبيحة على مسعد ولد السعداوية ، وقال فى نفسه :

– «والله عال يا عم عويضة ، حتناسب السعداوية مرة واحدة ، وحيبقى لك عزوة يا عم ، وأنت كمان يا عبد المعبود ، حيكون لك بنسب السعداوية عزوة ، لكن» .

– «هل تنفع هذه العزوة وأنت موحول هنا فى القاهرة ، أم الدنيا وأم الهم الثقيل ، المهترئة بلا حدود» .

مرة أخرى يصحو على كابوس :

الباروده فوق رأسه والسعداوى الكبير يصدر حكمه عليه ، لمروقه ، وصوته

المتضخم يقول له فى الحلم ، بينما تتسع حدقتاه حتى تصبحا كقرصى شمس لاهبة : «اللي يخرج من تويتا ما لو عيش وسطينا» .

لم ينتبه إلى أن جرس الباب كان يدعوه بإلحاح إلى أن يستيقظ .

★ ★ ★

استقبل زميله المسافر ، والذى شغل مكانه فى أرشيف تلك الجريدة الخليجية ودعاه للدخـــول ، حمل معه حقائبه الكثيرة ومتعلقاته التى لا حصـــــر لها ، واستمع إليه :

– سمحوا لك بالاجازة يا سيدى ، بعد ما عرفوا ظروفك .

ثم أردف :

– الله يسامحك بقى ، حاجِّل سفرى بسببك بعد ما سلمت السكن وبقيت ف الشارع .

ألقى عبد المعبود نظرة فاحصة على حقائب الرجل الذى قال :

– أيوه يا سيدى ، حاقعد فى مطرحك لغاية لما ترجع ، ماعدليش سكن . اعمل إيه غصب عنى وعنك .

– يا سيدى هو أحنا قلنا حاجة ، هو أنا حشيلك على كتافي ولا يعنى حاقعدلك. أنا حسافر على أول طيارة .

قال الرجل :

– ومكانك محجوز لو حبيت ، خذ تذكرتى أنا لسه مارجعتهاش . الطيارة بكره الفجر .

استقر على مقعده بالدرجة السياحية فى الطائرة التى تصل القاهرة بعد مائة دقيقة من إقلاعها ، كان يضم إلى صدره حقيبته الصغيرة التى يضع فيها جواز سفره وتذكرة الطائرة ورسالة ماهنور الأخيرة إليه ، وإعلان المحكمة بموعد الجلسة الأولى لنظر الدعوى المقامة من زوجته تطلب الطلاق ، ومع الحقيبة كان يضم

مظروفاً تردد منذ أن تسلمه مع الرسالة والشريط أن يفتحه ، فهو يعرف عن يقين أنها صور رحلته الأخيرة إلى مصر ، ومعظمها أخذ على شاطئ البحر ، حيث استشعر فى ذلك الصيف الساخن ، ما تواتر بعد ذلك وانتهى بطلبها الطلاق أمام المحكمة !!

لكن من الجائز أيضاً ، أن تكون رحلة الصيف تلك بريئة من اتهاماته، وأن يكون أشخاصها مغيبين عمّا يحدث . ربما .

أشياء كثيرة ومشاهد عدة وانفعالات متباينة ، أفكار تروح وتجىء بلا تتابع تكاد تورثه جنوناً ، فوق جنون الخوف المرضى الذى ينتابه كلما ركب طائرة ، رغم أن مرات ركوبه الطائرات قد تكررت منذ لجأ إلى هذه الوسيلة ليهرب من حصار الحاجة الذى وضع قدمه على حظيرة الفقر المدقع ، والذى خرج من القرية إلى الدنيا الواسعة فى محاولة لكسر حدته ، ويجر معه ماهنور التى لم تعرف كيف يكون الاحتياج المخل إلا على يديه .



لم يستطع أن يمنع نظراته من الاصطدام بأرداف تلك المضيفة التى تتمتع بقوام متناسق بديع ، وإن كان يميل إلى البدانة قليلاً ، وتميل إلى القصر أكثر .

ضحك ، وربما بانت ضحكته على وجهه ، لأن تلك المضيفة بعينها بادلته الابتسام ، بل وأومأت له بالتحية ، هو جزء من عملها أن تبتسم لمن يبتسم لها من الركاب ، وأيضاً ، لمن لا يبتسم : «كن ضاحك السن تضمن رحلة طيبة لك وللركاب» . تتقدم السنتان الأماميتان تكشف عنهما تلك الابتسامة ، أرنبة أخرى لها نتوء يفتر عنه ثغرها ، وغندرة تفصح عن أنوثتها ، ووجه مشدود يتوهج صحة ، وعينان ذكيتان كطلقات لا تخيب . ربما يدور فى ذهنها ما يدور فى ذهنه فى نفس اللحظة ، ألم تعلمنا المسلسلات الأمريكية التى تغزونا عبر البحار ، أن هناك صلة خفية وخطوط اتصال غير مرئية ، تصل ما بين وجدان الناس ، وتقوم بدلاً من الحمام الزاجل ، خاصة – كما فى تلك المسلسلات – بدور رسول الغرام .

اتسعت ضحكته :

– «ما هذا التخريف يا جدع . مثلك يجب أن يكون مهموماً» .

اقتربت تلك المضيفة لتتكسر الحروف على طرف لسانها تسأله :

– تؤمر بحاجة ؟

– «لو كان لى أن آمر لأمرت بأن تجلسى على حجرى أو تنامى فى حضنى» .

قـال :

– لا شكراً .

لكن المضيفة ضحكت ، ربما ، لأن كمية الزفير التى حملتها الكلمات القصيرة ، فضحت انفعاله .

– «حقاً . قصيرة مكيرة» .

قالت أمه عندما رأت ماهنور أول مرة :

– جوز القصيرة يفتكرها صغيرة .

ضحك للذكرى ، لكن صوت قائد الطائرة الذى انساب يعلن عن مقدار ارتفاعها فى الجو ، أصابه بالتجهم ، وسقط قلبه من شدة الخوف.

– «معقول ، متعلقين المسافة دى كلها فى الفضا» .

عادت الابتسامة إلى وجهه ، لكن كان لها رسم المرارة :

– «ماهه انت يا بنى ، قاعد متعلق ، مسافر متعلق ، نايم متعلق ، باختصار كده عايش متعلق» .

ويخوف :

– «لكن . ليس من مثل هذا الارتفاع» .

ضحكت المضيفة وهى تقترب منه :

– لو تقول لى إيه اللى شاغلك يمكن أريحك .

– «معقول . تريحينى أنا ، أهه ده اللى مش مكن أبداً» .

لم يقصد أن تسمع ، لكنها قالت معلقة :

– لأ ، ممكن طبعاً ، إذا كان الطيران بيضايقلك مثلا ، عندى برشام يمنع الدوخة .

– «ينقص أن تقول : وكل من له نبى يصلى عليه ، كدجال القرية الذى يبيع الوهم» .

ضحك وضحكت على ضحكه .

– دوختى أنا شكل تانى يا آنسة .

وأخرج الهواء المكتوم من الصدر .

– ياه . دانت حكايتك صعبة . حجيب لك ليمون ، يمكن تروّق .

وغابت عن مجال الرؤية ، لكنها ظلت فى المخيلة تطرق بعنف ذلك الدماغ الذى تصدع .

– «لابأس ، مازال فى هذا الدماغ مكان لك ولمن هن على شاكلتك» .

– «هل نبدأ بالإهانة ؟ لا . ليست كل طيور السماء غربان ، وليس كل الأمهات أمه ، وليس كل القصيرات ماهنور» .

★ ★ ★

تقدم بخطوات وجلة ، تغوص فى الأرض الرخوة ، ومضت تجرجر وراءه قدمين مثقلتين بمشقة الرحلة ووهن النزف .

طرق بابا مصنوعاً من الأشجار الخشبية ، تركت خشونة أليافه ملمساً دامياً . أجابت ديكة تصيح وحمام يهدل ، وبقرة مشاع تخور ، ثم ترامى صوت امرأة عجوز تطالب الداعى بالتمهل ، عرف فيه صوت أمه .

ملأت خياشيمها رائحة القرية المنزوية على مفتاح الطريق إلى الجنوب .

أزاحت العجوز السقاطة الخشبية فانفتح الباب .

نامت أمام ناظريها تلك المساحة المتربة التى يداريها الباب الخشبى بصوته المتحشرج ، والتى تنبش ترابها أظافر الدجاج .

اندفع يأخذ أمه بالأحضان .

اجتازت من بعده عتبة الدار ، جفلت من فزع الحمام الراقد فى أعشاشه المعلقة على الحوائط ، انتفضت لخوار البقرة المفاجىء ، فاندفعت إلى ظهر فحلها تدفن رأسها .

تنبهت الأم إلى وجودها ، فدعتها إلى الدخول ، ودوامة الفكر تدور عاصفة تحت غطاء جمجمتها المتدثرة بالفضة والمجللة بالسواد .

جلس عبد المقصود عبد الستار المتولى أبو زغلة يمعن فى الإنصات، لم كن غيظاً ذلك الذى يكظمه ، كان شيئاً آخر كهجير فرن محمى يلهب داخله .

– «هل يعلن أمام أهل القرية أن أخاه عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة قد مات ؟ ماذا لو أقام سرادقاً للعزاء ، بدلاً من سرادق الفرح والزفة التى كان يأمل أن يزف بها أخاه عندما يعود منتصراً بالعلم ؟ ومن هى هذه التى سلبته واستولت عليه واستحوذت ؟» .

– «لا لن تأخذك – نداهة – من البندر ، أولى بى أن أواريك التراب»

قال عبد المعبود :

– أنا مش حرمة فرطت عشان اللى عملته يبقى عار .

استعاذ عبد المقصود بالله من الوسواس الخناس الذى كان يوسوس فى صدره، وعينه تروح وتجىء بحركة بندولية على البارودة المعلقة فوق رأس عبد المعبود على الحائط .

ذهبت عينا ماهنور وراء عينى الصقر والمتدثر بالطاقية والجبة والقفطان ،

والقابع أمامها كتلة بركانية توشك أن تلفظ حممها . لمحت البارودة وحدست ما قد يقع ، سقط قلبها وأحست بالخوار ، اقتربت أكثر من عبد المعبود ، لعلها تجد فى الإلتصاق به بعضاً من الأمان .

- لا .

صرخ الأخ الأكبر :

- دا ما يحصلش واصل ، ولد أبو زغلة ما يخونش الأمانة ، أبوك وصانى عليك يا عبد المعبود ، علقك فى رقابتى وســـافر ، ركب القطـــر اللى مالوش راجعة . لكن أنت

وكتم انفعاله :

- قوم فز .

انتفض عبد المعبود واقفاً .

- قومى وراه .

صرخ فيها صرخة قفزت بها ، حتى كادت أن تنكفىء على وجهها فوق الأرض المتربة :

- افتح الباب ، واسحب العنزة اللى انت سالبها م البندر وأمشى . ماتبصش وراك ، ولا تعاود ... تانى .

تحرك عبد المعبود ، وتحركت ماهنور ممسكة بكم قميصه .

- اسمع .

تسمر واجفاً ، تسمرت معه .

- محروم يا ولدى ، لا ، يابن بوى ، محروم من كل شىء ، فين المفاتيح بتاعت شقة مصر . دى أصلها من فلوس أكل أمك ، ما فتحناهاش للمسخرة وقلة الحيا .

اخرج عبد المعبود مفاتيح شقة البدروم ، ومد بها يده إلى عبد المقصود الذى انتزعها من يده بأظافر مسنونة .

سحب حمله وخرج تتعثر خطاه ، حتى المأوى لم يعودا يملكانه :

- «ماذا لو تركتها لمصيرها أو نصيبها» .

- «القاهرة غير القرية ، وبنت المدينة غير بناتنا . تستطيع أن تدبر نفسها» .

وظل يمضى بقوة الدفع ، حاول مرات أن يتوقف ويستدير ويجثو معلناً توبته ، تاركاً مهرته تشيع ما شاءت لها فورة انوثتها ، لكنه ظل - مع هذا - يمضى .

كالسائمة المربوطة بقيد غير منظور تبعت خطواته .

شيعتها الأم بنظر كليل وألفاظ مسمومة ، وإطار من الضوء المنسكب من الباب الذى فتح لهما على مصراعيه ، يرسم حاشية تحدد من وراء الظهر ، الفتاة التى كانت تمور فى صدرها انفعالات ثورة عارمة .

- «انت لا تعرفيننى يا عجوز» .

هكذا خاطبت نفسها وهى تمعن فى الخوض على الأرض المتربة ، تختلط أصابع قدميها المطلة من فتحة صندلها الصيفى بالروث والأوساخ:

- «عداوتى مُرة» .

لكنه انفعال ذهب مع الرياح المحملة بالأتربة والروث الجاف وروائح القرية .

★ ★ ★

داهمها وهى فى الطريق ، فيض من الدماء تفجر لزجاً حاراً بين فخذيها ، طرقت باباً تقصده ، فتحت لها زميلة الزنزانة ، وصرخت ، ولولا أنها رأت فيض الدماء الذى رسم بقعة كبيرة داكنة أمام الباب ، ما كانت قد رحبت بها أو حتى سمحت لها بالدخول إلى البيت ، ذلك أنها كانت فى هذا الوقت بالتحديد تستقبل رفاقاً قدامى ، غابوا طويلاً وراء الأسوار ، ولم يكن وجودها مطمئناً فى حضرتهم منذ ذلك اليوم الذى قامت فيه شبهة اتصال بينها وبين رجل الأمن الذى لعب لعبته بذكاء ، فأبعد الرفاق عنها وعن عبد المعبود ، الذى أثار حوله الشك والريبة يوم ذهب لفداء أخيه ورغم أن الرفاق يعرفون بحكم الممارسة ولثبات الأسلوب أن هذه

ألعاب قديمة وبالية يمارسها رجال المباحث معهم منذ قامت صلة الصراع بينهم ، إلا أنهم لا يملكون فى كل مرة إلا الأخذ بمبدأ «السلامة القصوى» . فمن يدرى .

حملها الضيف المحتفى به إلى أقرب مستشفى ، أفاقت على فراش فى عنبر متسع ، النساء فيه مطروحات على ظهورهن ، يتأوهن ، فزعت، كم عدد الذين يشاركوننى العنبر لم تستطع أن تحصيهن ، فهى لم تكن قادرة على أن تثنى قامتها ، كذلك لم تجب العجفاء على سؤالها ، ماذا يهم أن يكن عشرة أو عشرين . أو أن تكون موضع ملاحظة من الرفاق، أو أن تكون الشكوك قد سقطت مع سقوطها صريعة فعلتها أمام الباب.

– المهم أننا أنقذنا حياتك ، حمداً لله على سلامتك .

– الأدوات التى أجريت بها الجراحة الأولى كانت ملوثة ، نجوت من جراحة ثانية على أى حال .

قال الضيف الذى حملها على ذراعيه مسافة طويلة :

– لو رأت خط الدماء الذى كان يحدد مسارها لأصابها جنون .

– عبد المعبود فين ؟

– بعتنا نجيبه واتصلنا بنبيهة .

كانت هى الأخرى قد قاطعت المجموعة ، أو أنهم هم الذين امتنعوا عن التعامل معها ، لأنها رفضت أن تقطع صلتها بماهنور ، وشجبت اتهاماتهم التى يلقونها بلا تدبر على من لا يستحقها ، بينما صفوفهم تشغى بالعديد من العيون البصاصة والآذان التى تضبط ذبذباتها على موجة السلطة وهم عن أصحابها غافلون . لأنهم يغصون بابتلاع الطعم دائماً – ولا يتعلمون .

– أنا عاوزة نبيهة .

ضحكت العجفاء مواسية :

– هى نبيهة دى أمك ولا إيه .

– أمى ؟!

قالتها بحرقة الوليد المحروم من الرضاع ، وزفرت .

– جاية تفتكريها دلوقت يا ماهنور .

– نورا . قوليلى نورا .

– ماشى يا ستى . اشمعنى نورا يعنى .

– نورا دى أصلها تايهة ، مش عارفة سكتها منين ، محتارة ، طيبة أوى ساذجة وعبيطة .

– إيه اللى بتقوليه ده .

هجمت نبيهة مفزوعة تولول :

– ماهى . مالك يا ماهى .

وبوهن شديد ، أجابت :

– ماهى نزفت يا نبيهة ، ماهى ماتت ، لكن نورا ، عايشة ، الحمدلله.

ضحكت نبيهة :

– انت بتدلعى نفسك يا ست انت .

همست لنبيهة أن تقترب ، قربت الصديقة أذنها من الشفتين الزرقاوين من شدة النزف ، قالت :

– على فكرة الناس دى ، مش بتحبنى .

– أمال جابوكى هنا إزاى ، أكيد بيحبوك ، كلنا بنحبك يا ماهى .

– نورا .

– هو اللى طالع عليك النهارده اسمها نورا ، ماشى ، ما يضرش .

– أصلها محتاسة ، مش عارفة ، حاسة زى ما تكون عايمة على وش المية ، والبلهارسيا بتنهش فى جتتها .

– أكيد أنت اتجننت ، وريني كده .

ووضعت يدها على رأسها ، تتحسس السخونة :

– يعني ما عندكيش حمى ولا حاجة ، أمال بتخرفي ليه .

ثم سألت :

– هو الدكتور ماقالش تروّح امتى .

–لما تحس إنها قادرة .

– حاخدها عندى . قومى . معاها هدوم ؟

– لا .

★ ★ ★

استقبل عبد المعبود خبر سقوطها فى بحر دمائها ، كأن حجراً قد وقع على أم رأسه .

– «ماذا يفعل ؟» .

الجيب خاو ، وهو لا يستطيع الحصول على نقود من أى مصدر .

– «هل يتركها لمصيرها وليكن ما يكون» .

لم يدرك يوما أنه سيقع فى مثل هذه الورطة التى لا خلاص منها إلا بالهروب .

– «الهروب فى هذه الحالة شجاعة ، هل هو جبان من ينقذ نفسه من هول ما لا قدرة له عليه» .

– ستجد حتماً من يرعاها ، ربما تكون هذه فرصتك .

– «قد يتركها الرفاق أيضاً لمصيرها . فهم منذ ذلك اليوم المشئوم ، الذى دق فيه ذلك المنتفخ بالسلطة «إسفيناً» وهم يولون وجوههم عنه وعن فتاته» .

– «قد يلتقطها هذا المنتفخ . حتى هذا غير مؤكد ، لم تعد ذات فائدة له . لقد نجح الرفاق ، فى سد الباب الذى قد يجيئهم منه الريح ، فاستراحوا . لكنهم

أراحوا أيضاً من يتربصون على الطرف الآخر من عنصرين نشيطين . ما أغبى الرفاق ، بل ما أغبى السلطة ، ما اغبانا جميعاً حكاماً ومحكومين ، فاعلين وقاعدين. الجميع يتفرجون على الجميع ، وكل واحد من الطرفين ينتظر من الآخر التحرك بدلاً منه . كلنا فى الانتظار ولا أحد يتقدمَ الصفوف ، أو حتى يبرز من بينها ، أليس هذا حرث فى البحر» .

– «لكنك يا صديقى شريك فى كل ذلك» .

– «على الخصوص ،أنت شريكها أولاً ، طرحت نفسها أمامك أخذتها عنوة – الأمر سواء – المهم ، لم يكن فى مقدورها منفردة أن تفعل هذا الفعل ، كذلك أنت أيضاً ، ليس بمقدورك منفرداً أن توضع فى هذا الوضع ، المسئولية مشتركة ، وها هى فى هذه اللحظة بالذات تدفع جزء من الثمن ، ربما تسدد الآن الفاتورة كاملة ، من يدرى ، إذا كانت تستطيع أن تواصل الحياة ، أو تموت ، أنت المسئول فى الحالين يا عبد المعبود يا ولد أبو زغلة» .

لم لا يذهب إلى البدروم حيث طرد ، لعله يجد شيئاً يعينه ، يستطيع أن يكسر القفل ، أو يحطم الباب . ليس هناك شىء ذو قيمة ، لكن ربما يجد ما يفيد .

قفز الدرجات الست إلى البدروم هذه المرة ، أيضاً ، وبنفس الطريقة التى أصبحت أسلوباً له كلما جاء إلى هذا المكان ، كأنه يلقى بنفسه فى الجب العميق مغمض العينين والحواس .

سمع أصواتاً ، أنصت .

– «ها هو أخوك ، لا بأس» .

طرق الباب .

فتح عبد المقصود الباب موارباً ، وصرخ فيه :

– عايز إيه ؟

لمح عبد المعبود امرأة لحيمة تنتقل مسرعة إلى دورة المياه .

مد بصره إلى الداخل .

كرر عبد المقصود صراخه .

أجاب عبد المعبود ، وقد أحس أنه الأقوى :

– عايز فلوس . ماهنور بتنزف .

– تموت . مش مسئوليتى .

وأوصد فى وجهه الباب .

– «إلى أين ، لا يعرف ، لماذا توقف ولماذا تحرك ، لماذا لم يقتحم الباب على أخيه ، ويقول له بأعلى الصوت :

– «ضبطتك وأنت متلبس بما تتهمنى به» .

هم أن يرجع ، لكن خاطراً قوياً منعه :

– «من ذا الذى يقع بين براثن أم الدنيا ، ولا يرتكب المعصية ؟!» .

★ ★ ★

على فراش مريح بحجرة متوسطة رقدت ماهنور فى مكان نبيهة على فراش الزوجية ، ولولا الوهن والضعف اللذان قاداها إلى نوم عميق ، لكانت قد سمعت بأذنيها زوج صديقتها الذى تعمد أن يقف على باب حجرتها ، يرفض قبولها فى بيته .

جاء عبد المعبود ، لا يعرف أيضاً ، لماذا جاء ؟ وما الذى يمكن أن يقوله ، وقف متلعثماً أمام نبيهة وزوجها ، الذى رمقه بنظرة قاسية وخرج ، لكنه لم ينس قبل أن يغلق الباب خلفه بعنف ، أن يقول لزوجته :

– اتصرفى : أنت عارفة إيه اللى أنا عاوزه .

استيقظت ماهنور على صوت ارتجاج الباب ، وارتمى صوتها واهناً تنادى نبيهة ، قالت :

– أنا خايفة ليكون وجودى بيسبب لك .....

لم تدعها تكمل :

– لا . أبداً .

ولم يكن الرد مقنعاً . قالت :

– أصلى زى ما أكون سمعت كده صوت مشاحنات.

قالت الأخرى على الفور :

– على فكرة فارس الأحلام وصل .

أشاحت ماهنور بوجهها ولم تجب .

دخل عبد المعبود متردداً ، ينظر إلى الأرض كالطفل الذى لم يقدر على حبس فعلته .

اشتبك مع طالب الطب في البحث عن مخرج ، لم يكن هناك مفر من اللجوء إلى ذلك الخُن ، الذى تمزق فيه الرحم .

ها هو يحمل شهادة لا تمهد سبيلاً لعمل ، وامرأة لم يرسم مشواره معها ، ويشارك رجلاً آخر مسكناً يضم معه فتاته .

سارت العجفاء فى مقدمة الموكب ، تتبعها نبيهة تسند ماهنور – وفى الخلف – عبد المعبود والطبيب التى افتتح حياته المهنية باجترائه على المهنة ، ثم زوج نبيهة ، وهو الذى دفع الجميع إلى هذه المسيرة ، يصاحبه الصديق الذى حمل الذبيحة على ذراعيه ، وأنقذ حياتها .

أمام عتبة بيت متواضع وقف الجميع يتأكدون من العنوان ، كانوا يقصدون مأذوناً شرعياً لا يدقق كثيراً .

فى هذا اليوم من ذلك الشهر من تلك السنة عقد عبد المعبود عبد الستار المتولى أبو زغلة قرانه على ماهنور صادق الزعفرانى خليل ، وشهد على العقد أحد أفراد

الجيل الثانى من الحـــرس القديم ، وشاب فى طريقه لمارسة مهنة الطب مع التجاوز .

وقفت نبيهة إلى جانب ماهنور ، ومن الناحية الأخرى وقفت العجفاء ، بينما أدركت ماهنور فى تلك اللحظة أنها تودع نورا التى لم تعاشرها طويلاً ، وأسفت لذهابها ، على أمل أن تعود ، من يدرى .

★ ★ ★

دفع العريس باب السكن ، العروس تعرف المكان ، فتجربتها الدموية كانت هنا ، فى هذه الحجرة بالذات .

استقبلتها خيوط العناكب التى تحتل كل الأركان ، تزحف وراءها رطوبة تأكل الجدران التى تساقطت فى معظم المواضع .

كان النهار مختنقاً .

قال عبد المعبود :

- معلش حاجة مؤقتة لغاية لما الظروف تتغير .

لكن طال الزمن ، والحال كما هو الحال لم يتبدل .

قال الصديق :

- صاحب البيت الذى هو فى نفس الوقت صاحب محل التصوير والذى يقتطع الحجرتين الأماميتين من الشقة التى يسكنون فيما تبقى منها شراكة ، يريد عاملاً يستقبل الزبائن فى غيابه ويعمل فى المعمل .

- لكن أنا ما اعرفش ، إيه جاب الدراسة بتاعتى لعمل تصوير .

- تتعلم يا سيدى ، واهه اسمه دخل يجى لك . لغاية لما تُفرج : واهى نواية تسند زير .

علقت ماهنور ، ليس على سبيل الهزار :

– اتفضل أعمل لك أى حاجة ، وإذا ما نفعتش ف الأوضة الضلمة ، ابقى روح الخرابة يمكن تلاقى فى الزبالة حاجة ناكلها .

قالت كلمتها ، وخرجت منفعلة ، لتقابل نبيهة التى كانت تحمل لها مفاجأة .

تعلم عبد المعبــود الصنعة ، التى لولاها ما كان يمكنه الالتحاق بالعمل فى الغربة .

★ ★ ★

أحس أن سقف الطائرة يكاد ينطبق على رأسه ، وحاول النظر من النافذة ، لكنها كانت بعيدة ، جاء مقعده على الممر .

«حسنُ ، هاهى المضيفة تخطر من باب الدرجة الأولى، فى مشيتها شىء من مشية ماهنور فى الزمان الفائت يوم كانت تخطر فى الجامعة ويرقبها من بعيد ويكاد يفتن بها، لكنه الآن يضيق حتى بهذه الذكرى. هل انتابه هذا الضيق من قبل، بالتأكيد، فلم تكن الحياة مريحة وكانت هى أيضاً تزيدها صعوبة» .

خطرت المضيفة تحمل صوانى الطعام ترصها أمام الركاب، لكن لماذا تبدأ من أول الطائرة، توهم أن ذلك مقصود، ألم تقل له إن أفضل مكان هو مؤخرة الطائرة، لعلها كانت تريد أن يكون قريباً من مكان وجودها معظم الوقت .

– «لا ياسيد. لم تعد الفتى الوسيم الذى تحب فيك عرائس المولد تلك خشونتك، رجولتك ضاعت أكثر من مرة مع بنت الـ...» .

ـ « الرجل فى بلدنا لايشتم حرمة لكنه يقتلها» .

ـ «إذاً فماهنور كانت تستحق القتل من زمن بعيد، لماذا لم يخلص منها بالقتل ويهرب بين أهله وناسه الذين نسيهم» .

ـ «يبدو أن القاهرة دمغتك بسلوكيات ناسها ياعبد المعبود، لم يعد للشرف نفس المعنى الذى تربيت عليه، كلمة الشرف هنا مطاطة تتسع لكافة التأويلات والتفسيرات حتى يضيع المعنى وتتبدد الحميّة ويصبح لا مجال للفعل» .

انتفض على غير وعى، وكادت الصينية التى جاء ت له بها تلك المضيفة الكارثة أن تتطاير بما تحمله من طعام .

ـ ياه . أد كده كنت سرحان .

جلس وهو يغرق فى ذهوله :

ـ أسف .

ضحكت

نفس الجَرْس .

« لماذا هذه المضيفة بالذات، من هو ابن الأبالسة الذى اختارها لهذه الرحلة بالتحديد.. ؟



قالت بعد أن ترك الطعام أمامه يحدق فيه ولا يمد يده إليه :

ـ أبعد من جنبك عشان نِفْسك تيجى ع الأكل .

ـ ليه بتقولى كده ؟

ـ يمكن أكون بسد نفسك .

ـ «هى عاوزة إيه الست دى ؟ »

وشرع يأكل، فعلاً لو تبتعد وإلا ستكتشف عجزه عن استعمال أدوات الطـعام كما يفعـل ركاب الطـائرات عامة، وكما يفعل أيضاً أفراد تلك الطـبقة المدعـية التى ضاعـفت من سخـونة الشـمس فى الصيف الأخير، والذى سحبته ماهنور إليهم، وكانت تريد أن يكون غافلاً أو مغمض العينين .

لكن ، لماذا يكيل كل هذه الاتهامات، ألأنه إنسان مهزوم؟ وهل هو مهزوم حقاً؟ ربما لا . ربما يكون فى قمة انتصاره بدون إراقة أى قطرة عرق أو كلمة اعتذار أو تبرير .

ـ «انفصال على ميّه بيضا» .

وضحك .

ـ إزاى قادر تضحك وتكشر فى لحظة واحدة ؟!

قالت ملاحظتها وتهيأت لتجمع صوانى الطعام من أمام المسافرين فى رحاب أنوثتها .

ـ «انثى راحت وأنثى تجىء فى نفس اللحظة، لكن من أدراك أن تلك التى يكاد يلتصق لحمها بظهر مقعدك، أنها لا تؤدى وظيفتها، فقط لا غير» .

لم يقرب الطعام، لا لأنه ليس راغباً فيه، ولكن لأنه يقع معظم الوقت تحت رقابتها، وهو يريد أن يكون حراً، يأخذ هذه بأصابعه، وهذه بالملعقة أو الشوكة، لايريد أن يتقيد بإتيكيت الموائد الفاخرة، أمه تأكل بأصابعها، وأخوه يكوّر الطعام فى يده قبل أن يدفعه إلى حلقه، حتى أولئك الذين يتورمون بالدنانير ويغصون بالدولارات يبادلون قذف الطعام إلى جوفهم والعبث بين أصابع القدمين فى نفس الوقت، ربما هى أيضـــاً أهلها يأكلون بنفس الأسلوب التى يتوق إليه فى تلك اللحظة .

قالت :

ـ «ما أكلتش يعنى خالص، الأكل مش عاجبك ولا إيه، أجيب لك حاجة تانية، عندى لحمة باردة، وأصناف جبن كتيرة ومربات .

ثم قالت :

ـ أجيب لك زبادى، فيه ناس كتير ماتحبش تاكل وهى مسافرة إلا زبادى .

كاد ينهرها :

ـ «ماتبقيش لجوجة بقى » .

انحنت ترفع صينية الطعام ، كاد صدرها أن يلامس كتفه .

ـ «ما هى الدنيا واسعة قدامك» .

مالت أكثر، ثم وضعت بين يديه مظروف الصور الذى كان قد وقع منه على الأرض .

★ ★ ★

أمعن النظر إلى وجهها الذى كاد أن يلتصق به وهى تلتقط المظروف وقال :

ـ إلا أنت اسمك إيه ؟

ضحكت وهى تعتدل :

ـ سها، وســـاعات ساهى ، إنما الأصل سهير، أخويا دايماً يقــول لى سهتانة هانم .

ـ أنت كمان .

ـ إيه فيه حد سهتان غيرى ما اظنش .

قال بسرعة :

ـ لا . لا أبداً . مفيش . مفيش .

استدارت وهى تعطيه المظروف، وتقول لنفسها :

ـ «هو ماله الجدع ده ؟!

وهمت أن تسأله ، لكنه بادرها بقوله :

ـ ماتاخديش فى بالك، أصل «النداهة» بتاعت البندر أخذتنى معاها قالت باندهاش شديد :

ـ نداهة ؟ يعنى إيه نداهة ؟

★ ★ ★

فتح المظروف :

ـ آه ، صور الصيف الأخير

ـ «الصيف الأخير!!، اسم يصلح لأن يكون عنواناً لمسلسل مصرى بأموال خليجية، أبطاله يجسدون أدوار المثلث الشهير: الزوج، الزوجة العشيق» .

ـ «لو كان الأمر فعلاً يصلح لمسلسل لكان ذلك مثالياً: يلتقى الثلاثة بتدبير من الزوجة على شاطىء البحر، موسيقى ثم تبدأ الأحداث » .

ـ «كنت أنا ثالثهما، ولم يكن هو ثالثنا» .



دعته لارتداء ملابسه على عجل، كانت الصحبة تنتظرهما، لكنه لا يعرف واحداً منهم، اللهم إلا ذلك الرجل زميلها أو رئيسها أو مديرها ـ الله أعلم والذى هو مهيأ الآن لتمثيل دور العشيق على شاطىء البحر، مرة واحدة جالسه عندما صحبته فى الاجازة الماضية إلى البيت .

ماالذى يدعوه إلى أن ينساق وراءها بهذه الصورة، استعرضا جميع المصايف، قبل المجىء إلى هذا المكان المغمور على أطراف الدلتا، لكنها أصرت على المكان الذى اقترحته من البداية، ماالذى يعجبها فى هذا المصيف البدائى، الذى لا يمكن أن تحدد، هل هو قرية على البحر أم هو مصيف داخل الغيط، لكنه بعد أن التقيا مع هذه الأسرة وهو يعرف أنها جـاءت من أجل هذا الرجل، جاء ت وراءه، ليس مصادفة لقاؤهم كما تدعى.

تردد قبل أن تطأ قدمه عتبة جديدة، وهَمَّ أن يطلب أمنية كما علمته أمه، لكن نبيه الشريف هجم يرحب بهما .

بدت الصالة الداخلية لذلك الشاليه بمصيف جمصة، مؤثثة بما يوحى بالراحة والاستقرار. الجميع يجلسون فى حلقة على منضدة دائرية يقطعون الوقت بلعبة من ألعاب التسلية التى يراها فى الفاترينات ولا يعرف هل هى لعبة من لعب الذكاء للأطفال، أم لعبة من لعب القمار، وها هو اليوم تتيح له ماهنور أن يدخل على ناس فى شاليه مريح يلعبون تلك اللعبة .

دعاهما الرجل لمشاركتهم اللعبة، أراد أن يعرف، اسمها : «ريسك» .

وترجم عبد المعبود الكلمة فى سره «المخاطرة» أو «المغامرة» شيء من هذا .

ـ «هل يمارس لعبة الريسك هذه ؟ »

ـ «لكن المخاطرة بمن ؟ أو المغامرة مع من ومن أجل من ؟ » .

ـ « لا . لن يستطيع أن يجارى، ليس بمقدوره أن يدخل فى الناس وبهذه السرعة يشاركهم مايفعلون. حتى لعبة البصرة لا يعرفها ، فكيف به يلعب الريسك هذا » .

بدت ماهنور وهى تلصق ظهرها بالمقعد الذى يجلس عليه الرجل وتقرب وجهها منه لتراقب اللعب، وكأنها تدلق أنوثتها فى ظهره .

تقدمت امرأة تقترب من الستين، لا تظهر شعرة بيضاء فى رأسها ، تلون شعرها بلون الحنة أو مايشبه، لعلها تتبع نصائح التليفزيون، أو، لعل حلاقها يقوم باللازم. أخذت المـــرأة عبد المعبود من يده وأفســـحت له مكاناً بجوار اللاعبين وهى تعرض عليه :

ـ منجة ولاّ جوافة .

واستدارت لماهنور تسألها :

ـ عصير منجة يا ماهى مش كده .

كمن لسعتها جمرة كامنة وسط رماد محترق :

ـ اشمعنى ماهى، ليه قلت ماهى .

ـ ماهه أنا اللى أحبهم ادلعهم على طريقتى .

ـ قولى لى نورا . ولا أقول لك مها . قولى لى مها .

ضحك نبيه وهو يرمى بالزهر على الرقعة :

ـ يعنى ماهنور بالعكس، نورا مها ، لو قلبتيها تبقى مها نور .

استدارت ماهنور بحدة لتلجأ إلي الشرفة الخارجية الملتحمة بالرمال، وصدرها يعلو، يضطرب بانفعال لاتدرى مصدره .

قام نبيه من مجلسه وأنهى اللعب، دعا ماهنور وأخذ يقدم الموجودين إليها :

ـ سوزان جميل، حرم الدكتور صموئيل، «مايسة» أختى الصغيرة وحبيبتى، خطفها الواد ده مني واتجوزها بموافقتى، همه يادوب كده فى شهر العسل .

ـ قالت : مانا حضرت الفرح . انت ناسى ولا إيه ؟

قالت مايسة :

ـ بصراحة كانت حفلة تجنن. إلا يابنتى ماحد فقع فيها ياليل مرة . ولا واحدة هزت وسطها هزة، اتجوزت كده برزانة، من غير هيصة، حتى كلمة مبروك لفوا علينا المعازيم طابور يسلم ويمشى .

قال العريس وكلماته تختلط بضحكة متصلة :

ـ واحد قال لى مبروك، قلت له وحياتك الباقية .

وجاء صوت الأم من الداخل .

ـ ما تشنعوش عليّ .

واطلت برأسها من المطبخ :

ـ حاكم أنا صاحبة الفكرة دى .

قالت ماهنور :

ـ فعلاً ياطانت، عندك حق، لازمتها إيه الهيصة، هى الواحدة مننا فى يوم زى ده فاضية تفرح .

قال نبيه يواصل تعريفها بالآخرين :

ـ شوقى، غريمى، جوز بنتى ، أختى يعنى. ماهه انا اللى مربيها ، والست المستخبية جوه دى وسامعة كل كلمة بنقولها تبقى حماة بنتى، على فكرة بترسم على جواز، لكن ده ده ، لما البحر ده يبقى طحينة .

عادت المرأة من الداخل تحمل علبة العصير وهى تقول :

ـ بيقول إيه الجدع ده .

ضحكت ماهنور وهى تجيب :

ـ لا ياطنط، بيقول إنك مش موافقة .

خبطت المرأة على صدرها بيدها الخالية، وقالت :

ـ أنا، اتمنى، بس بابا هو اللى معترض. قلت له روح لابويا يمكن يوافق، مارضاش .

ـ أصل العنوان طلع فى البساتين، فى القرافة يعنى .

قال الدكتور صموئيل :

ـ يعنى عرفتهم كلهم وسيبتنى أنا .

استدرك نبيه :

ـ على فكرة، الدكتور صموئيل، طبيب نسا بارع، تقدرى تقولى أبرع طبيب أمراض نسا وولادة، أى حد يروح له لازم يطلعه حامل، ويعمل له قيصرية، حتى لو كان غفير المزلقان.

وشاع جو من المرح، لكن عبد المعبود لم يشارك، حاول لكن الضحكة انحبست، فقد قبضت كف نبيه على راحة ماهنور وخرجا إلى الشرفة .

فى ركن المكان، كانت الأم المريضة مشغولة بالتهام ثمرة مانجو، ومنعزلة عن الدنيا ومافيها .

★ ★ ★

صرخ عبد المعبود بمجرد أن وصل الفندق :

ـ أنا ماباخدش ع الناس بسهولة، ثم مش مطلوب منى أنى اقبل أى ناس فى أى ظرف بأى شكل .

أجابت ماهنور بحدة :

ـ خلاص يابه العمدة، حبل الترحيلة انقطع .

ـ دول مش من توبنا .

ـ جايز مش من توبك، إنما بالتأكيد من توبى أنا .

وأردفت :

ـ ثم أنا اللى يهمنى من كل دول الأستاذ نبيه .

وقفز إلى ذهنها، قول نبيه على مائدة اللعب :

ـ أوراق اللعب أتلخبطت من زمان ياسيد .

حتى أنها لم تعنى بصراخ عبد المعبود، الذى انشرخ صوته .

ودت لو تبكى أو تصرخ، أو تغرق همها فى موج البحر، رغم أنها تخشى الاقتراب منه، وتفزع لو لامست قدمها المياه التى تموت على الشاطىء .

★ ★ ★

سألته المضيفة وهى تطل من فوق رأسه :

ـ المدام ؟

طوى عبد المعبود الصور، كمن يخفى شيئاً محظوراً .

ـ وبتخبيها ليه ؟. ماهى حلوة أهيه .

ـ عشان تشبه لك ؟!

ـ والله، وريني كده .

وامتدت يدها إلى المظروف، تخرج الصور، ثم تقول :

ـ إيه ده . دى تشبه لى بصحيح .

وسألت وهى تميل إليه أكثر :

ـ واسمها ايه الحلوة دى ؟

ـ ماهى مها ، نورا، ماهنور

ـ يعنى ماهنور .

وبعد لحظة :

ـ رايح لها بعد غيبة. مش كده برضه ؟

مد يده بإعلان الجلسة ودفع به إليها، قرأته، وقالت بصوت خفيض وهى تعيده إليه وتبتعد :

ـ آسفة .

★ ★ ★

تبعتها نظراته، شعرها القصير يبدو من الخلف كشعر فتى مخنث، السوالف كما رسمتها الحوائط على وجوه الفرعونيات، لم يسألها، هل هى مصرية؟ متزوجة؟

ـ «لا أظن، فمضيفات الجو لا يتزوجن فى الغالب، عندما تتزوج تهبط لا تطير، أصول المهنة، يجب أن تكون حرة، كسياح الترانزيت» .

ـ «ماذا لو خضناها سياحة معاً، ترى هل ينتظرك سائح أو رجل أو فتى أحلام ؟» .

ـ «كيف يكون الفتى الذى تحلم به الأنثى الطائرة، المحلقة فى الفضاء ذهاباً وإياباً » .

ـ «هذا اليونيفورم الداكن يلائم لون بشرتك البيضاء التى يكللها شعر شديد السواد» .

أغمض عينيه يستدعى وجه ماهنور، لم يستطع أن يجزم ما إذا كان شعرها أسود أو كستنائياً .

ـ « هو قصير له نفس الفورمة التى تصنعها تلك المضيفة، فهذه هى القصة التى تلائم هذا الجسد» .

انزلقت عيناه إلى ساقيها :

ـ «المرأة تُعرف من ساقيها، والرجل الذى لا يبدأ بالنظر إلى المرأة من الخلف بادئاً بالساقين، لايفهم فى النساء» .

وها هى تتيح له الفرصة ليطبق عليها نظريته، سمانة الساق مكتنزة مشدودة تقود إلى فخذين أملسين ـ بالتأكيد ـ شديدى الاستدارة ـ حتماً ـ يتدثران بدفء الثوب والجورب الذى يحتضن كل الكنوز المستورة. التهب خياله .

ـ «لستُ محروماً، على أى حال» .

ربما يرتد إلى لحظات اللقاء الأول، أول ماوقع نظره عليها، تبعها بعد أن عاينها وهى تمضى أمامه ودار حولها دورة كاملة، ثم وقف يتأمل نفس الرداء الذى يُضّيق على الساقين ويحدد أبعادهما .

ـ «هذه المضيفة تتمتع بمقاييس تقترب من الكمال، النسب محفوظة رغم قصر القوام واكتناز البدن، ليس لها ذلك النتوء الذى يعيب معظم أرداف النساء، ترى كيف تكون بملابس البحر، أو، بغير ملابس البحر».

أخرج من المظروف صورة بعينها، كانت مهرته أو عنزته أو غادته أو قرنفلته مطروحة على الرمال تغطى وجهها ببشكير أبيض كبير، وتترك جسدها نصف عار للشمس تلوّنه .

ـ «آه. هاتان ساقان سامقتان رغم صغرهما واكتنازهما» .

الزاوية التى أخذت منها الصورة، تفضح العين التى التقطتها، وتفصح عن مكنون مايستره رداء البحر، الذى أصرت على أن يكون من قطعتين، كأنما كانت تريد أن تكشف عن أكبر مساحة من ذلك الجسد الذى اختزل معالم الأنوثة وصبها فى جرعة مركزة .

خفقة صدمت القلب أفصحت عن أنه لم يزل فى النفس مساحة تشغلينها

ياماهنور، ولعل الشوق إليك هو الذى يشد الانتباه إلى تلك المضيفة التى تشبهك ، والتى بالتأكيد ـ لن تختلف عنك إذا مالرتدت هذا المايوه، أو مثيل له .

★ ★ ★

كانت مفاجأة نبيهة لها ، هى عرض بالعمل فى نفس الفندق، الذى يعمل فيه زوجها مضيفاً .

تزينت من وراء ظهر عبد المعبود، وقابلت المسئول عن العمالة السايرة فى الفندق، وتسلمت فى اليوم التالى العمل، ملحقة بفريق النظافة الموكول إليه ترتيب حجرات النزلاء .

واستقر عبد المعبود عاملاً فى معمل التصوير .

وعملت هى فى الفندق، تزامل فتيات فى مثل سنها ، حصل بعضهن على قسط من التعليم والبعض الآخر يكاد يفك الخط .

أصبح لهما دخل تتفوق هى فى الحصول على أكبر نسبة منه وجاء الإعصار الأول .

★ ★ ★

الاسم : تامر الفضالى .

الجنسية: أردنى من أصل فلسطينى .

العمل : مقاتل سابق، ومناضل مغضوب عليه، يعمل الآن فيما لا تستطيع أن تحدده ، لكنه ينفق ببذخ. من أين ؟ . لا أحد يسأل. المهم أنه يسدد دائماً ، فاتورة الحساب .

الهواية : مقارعة الخمر، واقتراف الشعر، أحلامه تنحصر فى وسيلة للهروب، متقلب المزاج، عنيف، ودموى. قدرته تتفوق فى مكان واحد، أحبته، وجاء ت تطلب الطلاق .

عندئذٍ شعر أنه لا غنى له عنها، انقذ حبهما والزواج، اختفاء الفارس المهيض.

كلّ ماتركه شريط تسجيل ملوث ببقعة ربما تكون دماً متجلطاً، مسجل عليه أغنية لذلك المغنى الذى هجا الحبيبة والحب، وذاع وانتشر صيته خارج حدود وطنه. ووجد طريقه إلى سمعه، كلما لعب الوجد على الأوتار المتشوفة الى ضمة عشق .

★ ★ ★

تقدمت المضيفة منه، واقتربت تحيطه بذراعيها وتحتضنه بحزام الأمان وهى تقول بابتسامة تملأ فراغ المكان كله :

ـ حمدالله بالسلامة .

بينما جاء صوت قائد الطائرة، يهنىء ركابه بسلامة العودة ويطلب منهم ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين .

سأل :

ـ حترجعى مع نفس الرحلة ؟

أجابت :

ـ لا أنا فى أجازة شهرين من النهاردة .

ـ شهرين .

كأنما يدبر له القدر الفرصة، هاهى الرياح تقذف فى طريقه بامرأة أخرى جاهزة، بطوق النجاة .

ـ حتقعدى فى مصر ؟ .

وابتعدت تنظم أشياء ها، فقد لامست عجلات الطائرة، أرض مصر. شعور غريب تملكه، لا هو فرحة بالوصول، ولا تشوف لما قد يحدث، ولا أمل يداعب النفس، ولاقنوط يهوى بها، ولا حتى إحساس بالترقب .

لا يمكن أن تغسـل المحنة العقل، فيبدو بريئاً كالوليد، أو أبيض كالحليب، لا يمكن !!

★ ★ ★

كاد مأمور الجمرك أن يستريب فيه، من كثرة ماتلفت يميناً ويساراً وفى كل الاتجاهات .

ـ هو أنت معاك حد بتدور عليه ؟

ـ لا . أبداً .

قالها بسرعة، كأنما يخفى أمراً، ثم تدارك :

ـ ببص على سهير .

ـ سهير مين ؟

ـ المضيفة .

ـ آه. دى خرجت أول ماالطيارة وصلت. زمانها فى الاستراحة دلوقت.

ـ الاستراحة ! .

ولمع فى ذهنه خاطر .

★ ★ ★

٢ .. تنويعات على ماحدث

انفض سامر العزاء، الرجال الذين تجمعوا فى صحن المسجد الذى يحكم مدخل الشارع الضيق المترب إلى بيت الفقيدة، بدأوا ينسلون واحداً واحداً إلى بيوتهم، يسلكون طرقات ضيقة ملتوية ومتداخلة إلى بيوت تساقطت معظم جدرانها، واهترأت .

والنساء المتشحات بالسواد اللائى ملأن حجرات الدار وشغلن الطابق الأول والثانى بدأت كل واحدة منهن تتبع زوجها إلى حيث يمضون ليلة تنداح بالتأكيد عن فجر جديد .

لكن، الفجر بدا لماهنور التى بات عليها أن تحمل الهم مبكراً، بدا بعيداً فهى لم تتعــد السـادسـة عـشرة بعــد، تليها شقيقتها نازلى التى جاء ت بعدها بعامين وياكينام التى تصغرها بخمس سنوات .

الأسرة تكتظ بالنساء من الناحيتين، خالات وعمات وبنات خالة وبنات عمومة، نحيلات، ومكتنزات، مفرطات فى الطول أو فى القصر، متوسطات فى العمر أو فى الحجم، طاعنات فى السن، أو يخطرن فى مراتع الصبا .

لكن الحياة لا تعطى الفرصة لأى منهن، لأن تكون أماً خارج جدران بيتها، منهن مالم تخطر هذه الفكرة على بالهن قط، ومنهن من قدّرن القيام بهذا الدور بعض الوقت ، بعضهن نبذن الفكرة تماماً، وبعضهن توارين حتى لا يُطلب منهن التورط فى مثل هذا .

فالذى مات، لتنزل عليه رحمة الله، والذى تدب فيه الروح، ليس أمامه ـ أيضاً إلا استجداء رحمته، ليس مهماً أن يكون الذى على قيد الحياة، صبية، أو طفلة، أو حتى رجل تفضحه ممارساته، التى تنبىء بما لا يسر ولا يطمئن .

وطدت ماهنور العزم مبكراً على أن تكون الأم الصغيرة والأخت الأكبر، وسط غابة من الشوارب الكثيفة والصدور العالية لفرعى العائلة ـ المنتفخين على السواء

بالأصل الشركسى، الذى لم يبق منه غير لقب يتعلق فى ذيل تسلسل الأسماء، وبعضٍ من النواهى والأوامر والمحاذير التى تصبغ علاقات حثالة من تبقى من هؤلاء فى مصر المحروسة. والتى أخذت تنصب على تلك الرءوس الثلاثة المهيضة، والمثقلة بعبء فقد الأم فى تلك السن المبكرة .

الغريب، أن الأب، المحدود علماً وعملاً، وهو الموظف المغمور فى شركة النسيج، عندما أراد أن يتزوج، بحث أهله عن فتاة تكون وعاء صالحاً لإنجاب ذرية نقية، ينتهى نسبها مثلهم إلى نفس المنابع .

كانت الفقيدة تستعد رغم المرض لتحتفل مع أسرتها بعيد ميلاد ابنتها الكبرى التى احتضنت فيها طفولتها هى أيضاً، وتطلعت معها لصبى أكثر نعومة، ولحياة خصبة تملك مقاديرها بنفسها، كان حلمها الطاغى أن تمسك بناتها بالدقة، يوجهن حياتهن بحريتهن وبملء إرادتهن وبمحض اختيارهن، لكنها بعد أن زرعت الحلم، ركبت الشراع الذى يطويه الفراق .

ففى تلك البلدة، ومنذ زمن مازال يتمدد حتى الآن ظلت الأنثى تساق إلى حتفها إلى نصيبها، تقترن برجل تسمع عنه ولا تراه، تعرفه من الأقاويل التى تشاع عنه بالحق أو بالباطل، يرسم خيالها صورة له ـ غالباً ـ ماتكون ترجمة لأحلامها، لا تصوراً لذلك القادم مع الغيب والمجهول، يغلق عليها بابه، وينفرد بها .

لم تطرح أنثى من ذلك الزمن، السؤال البدهى عن حقها فى الاختيار، ومازال نفس السؤال معلقاً فوق رءوس الكثيرات، لا يدخل عقولهن، ولا ينطلق من ألسنتهن.

هكذا، كان زواج الأم «ماهيتاب رؤوف» والتى ينتهى نسبها إلى «السنجق» أى سنجق ليس مهماً، من الأب «صادق الزعفرانى خليل» الموظف بمصنع الغزل القريب من البلدة، حتى ذلك الوقت .

استكانت الأم للحياة التى فرضت عليهما التقشف لعجز الأب عن توفير حياة أكثر راحة، وركنت إلى معاشرة ذلك الرجل الذى يكبرها بعشر سنوات، والذى أعطى لحياتها مذاقاً، كانت لمرارته حرقة فى القلب، ذاقت الصبية ماطالها منها، وإن

تجاوزت المرارة - فى حالتها - القلب والمعدة لتستوطن الدماغ حيث يختزن فى اللاشعور مايرسم أبعاد النفس وأهواء ها ومراميها .

حياة رتيبة، قضتها ماهيتاب حتى الوفاة، أقسى مايقع فيها من متعة هو زيارة تقوم بها للأهل، الذين مازالوا يعتزون بأصولهم التى تمتد إلى أعتاب الباب العالى، وبأن دماء هم لم تختلط كثيراً بالعنصر المحلى، وإن كان سلوكهم يتطبع بتقاليد وعادات أهل ذلك البلد الصغير، الذى لايستطيع أى منهم أن يعرف كيف استوطنوا هذا المكان، ومتى، ولماذا فبناتهم لا يتزوجن إلا باختيار الأهل، ورجالهم يخضعون لقيادة واحدة تتمثل في ذلك الجد الذى سبقته ماهيتاب إلى ترك الدنيا ومافيها، والذى بدا لماهنور كالديك الشركسى، منتفخاً على فراغ، تزدهى حلله بألوان غريبة ويكاد الدم أن يطفح من وجهه ، بخلاف ذريته التى تعاقبت ثلاثة أجيال من بعده، وهاهى ماهنور تشغل موقعاً من الجيل الرابع. فاللون الأصفر المعلول يزحف على وجوههم ليكشف عن ضائقة العيش، وعن زوال النعمة .

حتى ماكان يدعيه ذلك الشركسى من وقفية سلطانية خصصت له ولذريته، اتضح أنها وَهمُ كان يمنى النفس به حتى دفن معه بعد وفاة حفيدته بسنوات .

وتؤرخ ماهنور حادثى الوفاة وتربطهما بالأحداث الجسام، كأنما وشائج قوية تربط برباط وثيق الأحزان الخاصة بأحزان الوطن .

الأم ، وقت كان عبد الناصر يعلن «تنحيه» عن مواصلة المشوار الصعب .

يومها، أصابها اضطراب ضاعف من ارتباكها وهلعها وهى تجرى «بعزم مافيها » فى الشارع الرئيسى للبلدة، تحاول أن تعثر على أبيها ، فربما يكون جالساً على مقهى بعينها تعرف أنه يقصدها من وقت لآخر، لتقول له إن أمها تحتضر، عندما فوجئت بعموم الناس يجأرون ويهرولون فى كل الاتجاهات، يلطمون الخدود، ويشقون الملابس عن الصدور .

ــ « لا ، لا يمكن أن يكون حزن الناس لأن أمك تموت » .

دخلت المقهى ملتاعة، كان أبوها يقف وسط الجموع يتسمع إلى الراديو، وصوت الرجل النحاسى يعلن تنحيه عن الحكم .

ـ «لا . لا يمكن فى يوم واحد، تموت أمى، وتتركنا أنت» .

صرخت :

ـ خليك عشان خاطرى .

وبكت .

ربت رجل على رأسها وضمها إلى جانبه، قبل ذؤابات شعرها وهو يقول بعبارات تخنقها دموع :

ـ حيقعد. وحنواصل المشوار. مش حنخليه يسيبنا. اطّمنى .

قالت غائبة عن الوعى :

ـ أصل أمى بتموت النهاردة كمان .

انهار الرجل على المقعد، وعيناه معلقتان بها فى دهشة مؤسية فى الوقت الذى انتبه أبوها لوجودها فزجرها .

الجد. وقت ان كان الخليفة ، يحمل كفنه على ذراعيه ويجثو على أعتاب العدو .

لم يقدر لماهنور أن تحضر مأتمه، الذى يشاع أنه كان مهيباً، فقد كانت محرومة من معاشرة الأهل، منفية بأمر علوى من رجال الأسرة بعيداً عن موطن ميلادها، والتى لاتزال تذكر رغم بُعد المسافة ومشقة البعاد، مجالس الأسرة حول الطعام، أو فى ليالى السمر حين كان ذلك المنتفخ يتصدر مائدة طويلة يجلس رجال الأسرة حولها بترتيب تنازلى حتى أصغرهم، وكان ابن خالة لها من نفس سنها أو يكاد، معقود لها فى الأسرة أن تكون من نصيبه، وهو مالم يقع .

وتجلس النسوة فى حضرة الجدة، بغطاء رأسها التركى الذى يشبه قلنسوة الراهب، وهى كبرى بنات الشركسى كبير العائلة، وقد ورثت إمامة نساء العائلة عن عمة لها توفيت بعد الثمانين ـ تجلس النسوة تثرثرن بكل مايدور خلف الحوائط والسواتر والجدران .

عرفت ماهنور من أحاديث الليالى النسوية، أن أمها ماهيتاب لم تر الأب صادق الزعفرانى، إلا ليلة الدخلة، وبعد أن أغلق عليهما باب واحد..

كان خيالاً دموياً رهيباً ذلك الذى يسيطر على وجدانها كلما تجسدت أقاويل النسوة أطيافاً تتحرك .

خرج الرجل من خلوة الدخلة، وبدلاً من أن يشرع منديله، لتزغرد على إثر ذلك طلقات الرصاص وحناجر النساء، انتحى بالأب جانباً الذى أسرع بدعوة رجال الأسرة ، واستمر الجدل حتى طلع النهار، والعروس فى الداخل تتكور كالفأر المذعور، والعريس لا يعرف كيف يحزم أمره .

دوت صرخة العروس كأنما انغرز خنجر مثلوم فى أحشائها، خرجت بعدها القابلة من الحجرة، تشرع المنديل الملطخ بدم الذبيحة، لكن الأمر لم يسلم من واحد يقول :

ـ دم مين ده اللى نزف ياعالم !؟

باتت ماهنور مذعورة من خيالات تلك الليلة الرهيبة، قبل أن تفهم أموراً وتمارس فعالاً ..

رعت الأم مخاوف البنت، حتى تورمت، وعايشت فى خيالها حادثة الزواج : بنادق مشرعة تترصد، وعروس مهيضة مذعورة، ومنديل ملوث، وأصبع امرأة مسنون يفض الغشاء الذى يراوغ قدرة الرجل، وذل حيث لا مذلة، وألم فى النفس بلا أمل .

عاش شبح تلك الليلة حائلاً بين الزوجين على التلاقى، لم تبرح مخيلة الزوج تلك الكلمة التى حفرت لنفسها مجارى فى باطنه :«دم مين ده اللى نزف؟» .

فى مرات كثيرة كان يصرخ فى وجه المرأة أنه هو الجريح، وأن رجولته هى المهيضة ، وأنه جبن عن أن يحزم أمره، ويرمى عليها اليمين، قبل أن يطلع لليلة العقد صباح .

كانت ماهنور الوليد الأول الذى جاء على عجل، وبلا تأخير ليجسد الشك، بعد تسعة شهور من الزواج بالتمام والكمال .

لم يسمع من قبل طبيبا أو رجلاً أو امرأة أو حتى «بلاّنة» قبل هذه القابلة المدلسة عن أن هناك «غطاء مطاطى» وآخر «خشبى» .

لقد ضحكت على كل رجال الأسرة، هذه الملعونة وأسقتهم الكأس حتى الثمالة .

وظل لايفيق من ذلك الهاجس، ويسقى الأم المسكينة من العذاب والتقريع والسب والإهانة ماشاء له طبعه الحاد، ومع ذلك فقد أنجب منها ثلاثة بطون، حتى اكتشف أنه ماكان لها أن تحبل وتلد وتعانى آلام المخاض، فلقد كان هناك ثقب فى القلب، لم يتبينه إلا الطبيب الذى شخص أسباب الوفاة.

جلست ماهنور ليالى طوال إلى جانب الأم على فراش المرض، التى ظلت تردد دون ملل على مسامعها :

ـ نفسى اخليكى ماتشوفيش اللى أنا شفته، وتاخدى كل اللى كان نفسى فيه، وتعيشى العيشة اللى ماقدرتش اعيشها، وتتجوزى الراجل اللى اختاره قلبك، اوعى تبيعى ولا تسمحى لحد يبيع، حياتك وهناوتك، وحبك مش للبيع، مهما كان الثمن .

كبندول ساعة أثرية كانت كلمات الأم تتأرجح فى عقل الفتاة، حتى استوطنت، وكمنت .

وكمطرقة ثقيلة وقعت كلمات الأب على رأسها ذات يوم أسود كان يجادل فيه الخال :

ـ أنا أخدت بضاعة معطوبة .

لم تغفر له أبداً. وظلت كلماته مع كلمات الأم تحفر لنفسها بئراً فى النفس يزداد عمقاً .



عندما أطفئت جميع الأنوار، وهدأت الحركة، ولم يبق مايملأ السمع إلا صوت السكون، استولى خوف على قلب ماهنور، وارتعش البدن مع نشيجها الموعود فى الظلمة والذى يحدث فحيحه صوتاً أيقظ اختيها القابعتين فى ركن الفراش،

فانشدتا معها على نفس الوتر المتصاعد بكاء حاداً جاء على إثره الأب ليضيء النور ولينهر البنات .

تكورت ماهنور تحتضن الأختين الصغيرتين نازلى وباكينام التى دفنت رأسها بين تجويف الصدر الناهض، بديلاً عن الأم، وراحت تغط غطيطاً خفيفاً تقطعه من وقت لآخر زفرة عميقة كأنما تزيح عن صدرها أكواماً من الهم، بينما ألصقت نازلى ظهرها فى الحائط ودفنت وجهها تحت الغطاء وأحاط ذراعها بأختها الأكبر وغابت فى سبات .

التى لم يغمض لها جفن حتى تسلل ضوء النهار من النافذة، هى ماهنور، لم تدر متى غفلت عيناها، إلا أنها استيقظت على صوت الأب يدعوها للنهوض وتحضير طعام الإفطار .

الجفون مثقلة، وحريق يلهب العينين، كذلك لم تستطع أن تتحرك. فالذى يرى التصاق البنات يعرف كيف يلتحم التوائم فى الرحم .

دمعة حارقة نزلت من العين، وعاد الأب ينادى :

ـ مها ياللا ياحبيبتى .

كرهت أن يناديها بهذا الاسم. التى كانت تحب سماعه منها. ماتت وتركت فى حضنها صبيتين .

ـ «بالتأكيد لن يدخلا فى حساباتك ياعم صادق» .

قفزت من الفراش، ضئيلة ترتعد رغم الدفء الذى كانت الشمس تبعثه من النافذة، التى تطوع الأب وفتحها على مصراعيها .

أسرعت تحكم الغطاء على أختيها، لم تشأ أن تتركهما عرضة للمرض .

★ ★ ★

استطاع الأب، ولم يدر أحد كيف، أن يحصل على مبلغ يسمح له بمشاركة الخواجة «ينى سارياكس» فى مشغله. بعضهم أشاع أن «الفلوس أصلها فلوس

الخواجه»، وبعضهم أضاف «أن الخواجه لا يعرف »،امتدت الحكاية لتصبح يقيناً في البلد كلها، حتى الخواجة نفسه صدقها لبعض الوقت .

كان يحمل حقيبة نقوده ويدخل الشركة ليسدد ثمن الغزل الذى يشتريه لمشغله، وفجأة أصيب بالدوار، سقط ولم يفق إلا على سرير فى عنبر المستشفى العام على حدود تلك المدينة الصغيرة .

سأل عن الحقيبة، لم يعثر لها أحد على أثر .

مسئول الأمن، قال فى محضر تحقيق الشرطة، إن الموجودين معه وقت الحادث اثنان لا ثالث لهما: خفير البوابة، وصادق الزعفرانى الذى كان يقدم له إذناً بالخروج فى نفس الوقت .

لكن صادق خليل الزعفرانى، أثبت أنه حصل على الإذن قبل ساعة كاملة من وقوع الحادث، وأن ناظرة المدرسة تشهد بأنه جاء ليصطحب ماهنور فى نفس وقت وقوع الحادث أو قبله بقليل .

ولم يتهم الخواجة «ينى» أحداً، لكنه وقع فى مأزق، كان عليه أن يسدد قيمة الغزل المسحوب ليتمكن من سحب كمية أخرى .

معظم أهل البلدة تضرروا من وقف العمل فى المشغل، فالفتيات عرفن طريقاً آخر لمساعدة الأهل، غير الذهاب إلى الغيطان وممارسة الأعمال الدنيا فى بيوت بقايا الاتراك ومن هم على شاكلتهم من ملاك الأراضى أو التجار، كذلك فإن أرض الإصلاح لا تستوعب أيدى عاملة من خارج أسر المنتفعين، والملاك السابقين لم يلتزموا بالحد الأدنى للأجر الذى لم يتعد قروشاً لا تفيد، بعضهم تمادى وكان يصدر صكوكاً بالأجر فى نهاية اليوم أو الأسبوع، لا تصرف إلا من متاجرهم أو من متاجر أقربائهم أو المتصلين بهم .

استغل الخواجة «ينى» حاجة البنات إلى العمل، وحاجة الأهل إلى مداراة بناتهن عن العيون، فأمسك يده لم يبسطها، لكنه تحت أى من الظروف، كانت البنات فى مشغل الخواجة ينى تتقاضين بالقليل الحد الأدنى لعمل الأجير فى الأرض، الذى

يتعطل فى مواسم محددة، وقتها تكثر البنات على باب الخواجة ينى، ويقل مايدفعه الخواجة حتى للمستديمات فى خدمته، فقانون العرض والطلب يحكم العمل، ولم يكن الخواجة ينى غافلاً عن مثل هذا القانون أو غيره .

لذلك عندما ظهر صادق الزعفرانى ليقيل عثرة الخواجة ينى، رحب أهل البلدة واثنى بعضهم على شهامته، واستراب الأهل من مصدر النقود، وظلت الأقاويل والإشاعات عن مصدرها تروح وتجىء وفق الهوى والأغراض .

أعلن صادق خليل الزعفرانى أن هذه الفلوس هى تحويشة العمر، ولم يصدق أحد. ثم أعلن أنها فلوس كانت امرأته تحتفظ بها للإنفاق على المرض، لكن الأهل لم يهضموا هذه الفرية، لأنهم يعرفون «البير وغطـــاه» .

الوحيد الذى لم يتكلم وظل صامتاً واستقبل عرض صادق الزعفرانى بالقبول، هو «ينى» نفسه، رغم أن ماعرضه للمشاركة يساوى بالتمام والكمال، قيمة فاتورة الغزل الواجبة السداد يوم الحادث، لم تزد ولم تنقص ، لكنه كأى تاجر شاطر لا يملك الدليل، قبل العرض على علاته، وذهب مع شريكه إلى عاصمة الإقليم يسجلان عقد الشركة، الذى يعطى لصادق الزعفرانى حق الإدارة، ويكلف الخواجة ينى بمهمة التسويق. أما تشغيل المصنع وابتكار الأشكال، فتلك كان مهمة «دوسة» التى تربت فى بيت الخواجة بالمنصورة يوم كان أبوه من تجار القطن المرموقين، لكن البورصة قضت عليه فى غمضة عين. مات الرجل وتبخّر العز الذى كان .



لو أزاحت منديل الرأس لكشف عن شعر كستنائى له نعومة الحرير معقود فى ضفيرة واحدة سميكة تلفها على شكل كحكة تضعها فى موضع العمامة، لكن «شغل الأوية الملونة» التى تتدلى عناقيد حول الوجه كانت تحدد إطارا صاخباً لوجنتين مشتعلتين بحمرة طبيعية تنغرز فى وسطهما غمازتان تجعل لابتسامتها سحراً آسراً، فوق شفتين غليظتين كانت لاستدارتهما وتكورهما وبروزهما مكتنزتين دعوة لصادق الزعفرانى الذى تعشش فى نفسه إحباطات الزواج من بنت الأصول .

وهو يختلى بنفسه فى تلك الحجرة التى عاشر فيها ماهيتاب المهيضة التى كانت تتكسر وتتأوه وتلهث، كان يتوق إلى المرأة التى تحدث فحيحاً مربكاً يكثف من اللحظة .

دوسة، بالتأكيد، مهيأة لمثل هذا .

ـ «من هو ذلك المخبول الذى عاشرها ثم طلقها، وهل يوجد الرجل الذى يترك مثل هذه المرأة، إن كان لها مثل ؟!» .

سألها ذات مرة، فقالت بدلال من تعرف كيف وأين ومتى ترمى سهامها :

ـ « اسكت بلا خيبة » .

وطرقعت ضحكة، أوصلت لصادق الزعفرانى المعنى والمراد .

بغياب الزوجة، تصبح الأمور مهيأة لكى تخرج من السر إلى العلنية، هكذا طلبت وألحت .

لكن. كان له تخطيط آخر، فالأمور لاتؤخذ هكذا، وقد تعلم من التجارة أن ماتغلب به ألعب به، وماكان عليها إلا أن تنتظر ماسوف تسفر عنه تلك المماطلة، وبغريزة الأنثى الأسطورية، حجبت عنه نفسها. منعت عنه الماء والهواء .

لكنه كبت جماح الرغبة، وصبر، فهذا هو التكتيك يامرأة، خطوة تتبعها خطوة ثم خطوة حتى بلوغ الهدف، ولم يع أن لمثل تلك المرأة ـ أيضاً تكتيكها .



اقترحت ماهنور أن تنقل حجرة نومها مع اخوتها إلى الدور الأول، وأن تتخذ من الحجرة الداخلية التى تفتح على الساحة التى تتوسط بقية بيوت الأسرة، مكاناً للمذاكرة فى الليل، وإذا شاء الأب فهى مقعدة فى النهار ـ كما هى الآن .

الذى أدهش ماهنور أن الأب وافق على الفور وقام ينقل بنفسه قطع الأثاث: السرير النحاسى، الذى يتسع للبنات الثلاث، والدولاب ذا المرآة العريضة العالية، والتسريحة من حجرة الأم، والسرير الذى كان ينام عليه أثناء مرض الزوجة لماهنور،

إن شاء ت أن تضعه مع سرير اختيها فى حجرة واحدة، وإن شاء ت جعل لها المقعدة حجرة خاصة بها . «أليست هى الآن، ست البيت » .

أمعنت ماهنور النظر إلى الأب وهو ينقل بهمة مفردات الأثاث، وهى تقول :

ـ « لا . دا مش أبويا دا واحد تانى » .

ومنت النفس أن يكون الموت قد عدّل ما اعوجّ من سلوكه معها ومع أختيها ومع الأم ، التى زوّت معطبة القلب .

لكن الأب كان جذلان بهذا الاقتراح، فمعنى ذلك أن يكون له «مطرح مستقل» . وأن يكون لبناته مطرح لهن، خاص. ولا تنقطع الصلة فى الوقت الذى لا تتصل فيه اتصالاً محموماً .

★ ★ ★

كان على ماهنور أن تعتنى بطابقين كاملين، كل طابق يتكون من أربع غرف وصالة ومطبخ وحمام، أى أنه كان مطلوباً منها مع طلعة كل شمس أن تعتنى بنظافة أربعة عشر مطرحاً، وأن تجهز الطعام لأربعة أشخاص، وتغسل وتكنس وتمسح مايقرب من مائتى متر مربع، وتشترى من السوق وهى عائدة من المدرسة احتياجات اليوم التالى، وأن تمسك مصروف البيت لايسقط فى الحساب منها قرش واحد، وأن تجلس آخر النهار تحاول أن يدخل رأسها المتعب بعضاً مما هو مكتوب فى الكتب الدراسية التى ستؤدى امتحاناً فيها آخر العام .

حاولت نازلى أن تساعدها وأن تشرك معهما باكينام، لكن الأخت الكبرى ملأها إحساس غامر بالفداء، رفضت أن تهين أختيها فى أعمال البيت، لكنها فى نفس الوقت لم تبخل عليهما بالتعليم، وهكذا، استطاعت أو أرادت أن تعطى انطباعاً بأنها تسد الفراغ وتكمل دور الأم، على صغرها .

كانت كلمة ثناء من أى من الأهل أو الأب على ندرتها، أجراً مجزياً لها حتى وقعت الواقعة، وجاء الأب ذات يوم يصحب دوسة معه ويعلن للبنات أنها ستقوم مقام

الأم فى الاهتمام بشئون البيت، لم يدخل فى روع أى منهن أن المقصود هو أن تحل محل الأم حتى فى الفراش .

هكذا سرقت تلك المرأة من ماهنور انتصارها، بقرار من طرف واحد. لم تشأ أن تعترض وإن وقفت للمرأة «كالعضمة فى الزور» أو «كالعقدة فى المنشار» .

لم تطق المرأة كثيراً، وعرفت أن مكانها بين بنات ماهيتاب وفى بيتها وعلى سريرها أمر لن يتحقق فى وجودهن، فعزمت على الانتقال إلى الخطوة الثانية من مشوارها معه .

طلبت أن يكون لها بيت، وعقد زواج ورجل يعلن على الملأ اقترانهما، لكنها لم تحصل إلا على جزء من شروطها، وتأجل تنفيذ الباقى باتفاق الطرفين .

استأجر مكاناً من مطرحين وصالة على مشارف البلدة بالقرب من المشغل، كان يقضى يومه معها بعقد عرفى، ويئوب مع الليل إلى حضن البنات .

فى بلدة صغيرة مثل بلدتهم لا تخفى أمور جسام، فما بالك إذا كان الأمر بهذا الوضوح وهذه البساطة. لكن أمرهما لم يفتضح، فالمرأة دائماً وراء ذيوع الخبر، أى خبر، ووراء كتمانه أيضاً وكان لدوسة من النباهة ما يعينها على حسن التقدير، فشاءت حكمتها أن تؤجل إعلان العلاقة مالم يتدخل عنصر رغم إرادتها .

★ ★ ★

سخرت ماهنور من مشاعر ابن الخالة، آخر قائمة الذكور فى الأسرة، والذى كان يطرق بابها كل صباح، يقف كالطفل الذى بلل نفسه، يسألها إن كانت تريد شيئا .

وبمشاعر شقية كانت تسخره كيفما تريد، ترسل به إلى السوق، تجعله يحمل عنها سلة الغسيل إلى السطوح، يكنس بدلاً منها السلالم من الدور العلوى إلى الشارع، تقبل هداياه من الحلوى التى يشتريها لها من مصروفه الخاص. وبقسوة كانت تصده عنها وهى تستمرىء أساه وتستعذبه .

يتقافز في داخلها شيطان أمرد صغير يدعوها لتعذيب الفتى، قبل أن يتجسد أمامها، رجلاً ناضجاً يغلق بابه عليها، ويضرب إصبعه المنتصب بشراهة كقضيب من لهب ليفض بكارتها .

حلمت ذات الحلم في ليلة محاق قامت تصرخ، حتى هرعت أختاها فزعتين لفزعها، ونام ثلاثتهن في فراش ماهنور الضيق، تحتضن كل منهن حلمها الغريزى، وتحاول الكبرى، بالتحديد ، أن تئده .

كانت مشاويرها إلى السوق ترويح للنفس :

عينان واسعتان تدوران في حدقتيهما كحبتي زيتون أسود في طبقين من الحليب الرائق ، ترمقانها في الغدو والرواح .

هو فتى دائم التجوال في السوق يحمل زكيبة أو وعاء مغطى بقطعة قماش من جلباب قديم، لا تدرى هل هو يبيع أو يشترى، لم تجرؤ أن تقترب منه، نمنمات خافتة كانت تصيب القلب الصغير بالتوتر، لا قدرة لها على النظر إلى عينيه الواسعتين كعيني بقرة حلوب، ابتسامته التي تشيعها لا تدرى ما الذى تبعثه اليها أو تعبثه فيها .

كانت تتفتح، وكان يضيء خيالها، لاتشركه في أى من تصوراتها، وقد كانت كثيرة، يجنح خيالها إلى فعال لو ضبطها أبوها متلبسة بها، لذبحها كما تذبح اللعوب على عتبة الدار .

لماذا تتقدم صورته على كل الصور، وتشغل مساحة من نفسها؟ لماذا لم تخلط بينه وبين صورة الرجل الذى ترسب في أعماقها صائد بكارات؟ ولماذا عندما يحتضن خيالها صورته، لاترى نفسها كما وطن في الشعور، فريسة مهيأة للاغتصاب والقهر ؟ .



بقى من الزمن شهران على امتحانات نهاية العام. كانت ماهنور في السنة

الثانية الثانوية، تستعد للسنة النهائية فى العام القادم، ونازلى فى السنة الثالثة الإعدادية، وباكينام تنتقل إلى السنة السادسة الإبتدائية .

تملّك نازلى النعاس، وأخذت رأسها تسقط منها وهى تجلس أمام أختها الأكبر تستذكران دروسهما . دعتها ماهنور للنوم فهى توشك أن تصيبها بالعدوى، لكن قيام نازلى قطع استرسال ماهنور فقامت لتصنع لنفسها كوباً من الشاى، التفتت إلى الباب المفتوح على الساحة الواسعة التى تفصل بين بيوت الأسرة، وانتابها شعور بالخوف طردته بسرعة، فهى لا تريد أن يتملكها مثل هذا الشعور يوماً، تريد أن تنبذ الخوف من كل شىء ومن كل مرء. جربت قسوتها على ابن الخالة، ونجحت، بل كثيراً ماكانت تنتفض فى نفسها تلك الأنثى الشقية تدفعها للمزيد بمجون كانت تقاومه، تأمرها أن تمتحن عنده أنوثتها، لكنها رغم عنف الدعوة المتسلطة لم تجرؤ أن تستجيب .

اتجهت ناحية باب الشرفة تغلقه، وقفت تطل على الساحة المربعة بين البيوت، الجميع نائمون، النساء فى أحضان الرجال .

ـ « كل واحـــد من الأسرة الآن سواء من ناحية الأم أو الأب يصـــنع ذرية جديدة ؟ » .

لكن ضحكها لم يطل، فقد احتضن الضحكة وجيب فى القلب يزحف بحذر ناعم إلى الأطراف .

كثيراً ماكانت تلك اللزوجة الدافئة تقلقها، لكنها الآن استمرأت انسياب الدفء، واحتضنت عيناها خيالها الذى يرسم ذراعاً فتية تهتصر هذا البدن اللدن .

سألت ماهنور نفسها وهى تغمض عينيها على ذلك الخيال المشبوب:

ـ «ماذا لو احتضنك رجل ؟ لو انتهى عبثك بابن الخالة إلى رغبة فى ضمة أكثر احتداما».

وبدا، كما لو أن هذا الحلم، أمنية، طردتها من ذهنها على صوت حيوان يتألم،

خطت درجتين إلى الساحة وتقدمت تتبع الصوت فى الظلمة، تعثرت وكادت أن تسقط على وجهها وهى تصرخ من هول الفـزع .

لم يكن ذلك صوت استغاثة حيوان يتألم، كان اشتباكاً بين كلبين، وكانت الأنثى فيهما تتأود .

أضىء النور فى نافذة واطئة تطل على الساحة، عرفت على الفور أنها نافذة الخال «أدهم» هو الوحيد مثلها فى هذا المكان الذى يتوحد مع نفسه، لايخالط أحداً من باقى أفراد أسرته على وجه التقريب، ومع هذا كانت تستطيع أن تلتقط نظراته إليها وتترجمها وتشعر أنها تقول لها أشياء لا يقولها غيره، ترتاح لمعانيها، وتشعر أنها قريبة منه، وأنه أقرب الأقارب إليها .

وبدلاً من أن يفتح النافذة ويحادثها، فوجئت به بجلباب النوم أمامها فى وسط الساحة، يتقدم منها، وشعرت كما يشعر النائم أنه يفتح ذراعيه ليحتويها، وعندما ضمها إليه، غمرها فيض الحنان الذى تعبر عنه تلك الضمة، والدفء الذى يحتويه ذلك الصدر. دفنت رأسها فى أعطافه، وتملكها خدر ظل يدعوها إلى أن تبقى .

لكنه نشر ذراعه حول جيدها، واحتضن كفها بذراعه الملتفة حول العنق، فوطأت قبضته صدرها النافر، وتقدما معاً إلى حجرتها، أجلسها على الكنبة التى تسند ظهرها إلى الحائط بجوار الشرفة وجلس إلى جوارها على الحافة وهو يميل إلى الداخل، رفع ذقنها بسبابته وقبل مابين العينين ثم أرنبة الأنف، أغمضت عينيها مستسلمة لكنه اعتدل ليقول لهـا :

ـ ايه اللى خرجك فى الساعة دى للفسحاية ؟

كان صدرها يتهدج، فلم تجب. ضمها إلى صدره ثم وقف ليأخذ وجهها بملء قبضته إلى حجره .

ـ « لا يمكن أن يكون لهذا النتوء المتصلب وجيب كنبض القلب الملتـاع» .

أدركت ماهنور فى تلك اللحظة، أنها تقع فى بؤرة رجل يرغب، لكنه ليس مألوفاً، أن تكون لرجل تقول له ياخال، وإن ظلت الرغبة تنسج خيوطها أقوى ليلة بعد ليلة .

ابتعد يصنع لها الشاى بنفسه، ويقدمه لها، وهى جالسة القرفصاء فى مكانها تسند ذقنها إلى ركبتيها اللتين تعتصرهما ذراعاها، لتضم رعشة تكاد تفضحها .

قدم لها الشاى، رشفت رشفتين، نزع الكوب الذى تحتضنه بأصابعها، من يدها وضع الكوب على منضدة المذاكرة. جذبها من يدها، طاوعته، ضمها إلى صدره واقفة، لف ذراعيه حول كتفيها، استكانت للنشوة وامتلأت .



الإنسان الوحيد الذى كان يتقصى أحوال أمها أثناء مرضها من بعيد ولا يتقدم بالسؤال مباشرة، هو الخال أدهم. كان ابن عم لتلك الأم، تعثرت به الحياة كثيراً والتوت ضروبها وهو يخوض فى متاهاتها، يقرض الشعر بالعربية، ويعلم تلاميذ المدارس الابتدائية اللغة، ولم يكن ذلك يروق للشركسى الكبير، فإذا كان لابد أن يقرض واحد من أولاد الأصول الشعر فليكن باللغة الأم، وإذا كان لابد أن يدرس، فليدرس الانجليزية أو الفرنسية فهما لغتا الصفوة .

كان حالماً رقيقاً أكثر مما تتطلبه ظروف المعيشة فى تلك البلدة .

بدأ كالفرس الرهوان يجتاز جميع السدود بتفوق، حتى تزوجت ماهيتاب، فخاب بعد زواجها، وظل على موقفه من الحياة يجتر الشعر، ويعطى حبه دافقاً لتلاميذه، ويمتنع عن الزواج تماماً كوهم الوقفية الذى لم ينفع أحداً .

لم يفصح لأحد بحبه لإبنة العم، لكن الجميع كانوا يعرفون.

نفس الأفعال التى يتقرب بها ابن الخالة إلى ماهنور كان يأتى بمثلها. لكن يقال همساً، والهمس فى هذه الحالة له ترديد يبلغ جميع الآذان ، إن ماهيتاب لم تكن كماهنور، أحلامها لم تذهب بعيداً عن حدود المربع الذى يضم بيوت الأسرة جميعاً وانها كانت تبادله الاهتمـــام .

لذلك، عندما وضع نفسه فى خدمة ماهنور التى ورثت عن أمها الكثير، لم يدهش واحد من الأسرة، بل تركوا الأمور تمضى، لعل فى ذلك تسرية عنه، وعوناً للبنات فى وحدتهن، بوفاة الأم، وبانشغال الأب بما يشاع عن عمله وعلاقاته .



ربما كانت تعرف من قبل ذلك الإحساس بالخدر اللذيذ الذى كان يستفز بكارتها كلما ضمها إليه، أو التصق بها، أو عبثت أنامله فى شعرها وتسللت إلى جيدها أصابعه المعروقة، الدافئة. لاينام إلا إذا نامت ودثرها بالغطاء وقبلها قبلة ماقبل النوم أو الحلم .

«ماهى» هى المرأة التى نضجت فى رحم الرغبة، وهو الذى أعطاها اسمها. و «مها» هى الصبية التى انزوت بعد موت الأم، فى زاوية من النفس .



انطلقت من بلدتها إلى القاهرة ـ طالبة فى كلية الآداب، وهى تجرجر معها إحباطات سنين مضت، وتحاول أن تكون شيئاً آخر .

انزلقت بخطوات رشيقة خلفه وهو يفتح باب مسكنه بعد أن هبطت تحت الأرض ست درجات. طالعتها شقة الطالب الذى نزح من بلدته على مشارف الجنوب إلى القاهرة يعاشر السياسة، ويقترف الحب، ويقتنص من العلم مايسمح له به وقته، الضائّع .

طقم من الجريد يتوسط الصالة، وقلة مقلوبة تتدلى من مكان النجفة، أعجبها التشكيل، اندفعت وراء باب مواجه، سرير من الجريد استلقت عليه وهى تقفز مرحة، قفز إلى جوارها .

وهى تقف أمام مرآة صغيرة فى إطار من الجريد على حائط بجوار باب الشقة تعدل من شعرها الذى تهوّش، لم تك غاضبة، ولا ملتاعة، كانت تلمع فى عينيها دمعتان، تعبران ـ ربما ـ عن سرور .

قالت :

ـ « لم أنزعج من بقعة الدم الوردية، انزعجت فعلاً من انحباس الدم الداكن عن التدفق فى موعده » .

صحبها إلى طالب الطب، الذى أراد أن يحل المشكلة، فمزق عنق الرحم، قال يفرغ معلوماته الطبية بفرح طفولى :

ـ الحمل موجود .

ـ وما العمل .

ـ لامفر من الجراحة

ومع غياب المخدر، عرفت معنى العذاب الأليم، ورددت الجدران المهترئة فى تلك الشقة الموحولة بصرف المجارى والتى عاشرا فيها خيبتهما، رددت صرخاتها .

فعندما حاول طالب الطب، هذا، أن يقفز من فوق جثتها إلى الممارسة الفعلية، وامتدت أدواته الملوثة إلى ظلام الرحم، توسع العنق، وتزيل الجنين مع أغشية الجدار، كانت الممارسة تختلف عما تلقاه فى الكتب، أو اقترفه داخل تجويف امرأة مهيضة تحت إشراف علمى للتدريب، وأصبحت الآن امرأة فى حاجة إلي جراحة ليحتفظ وعاؤها بالجنين، فالعضلة التى تقوم بوظيفة البواب فى عنق الرحم قد تمزقت .



فى إجازة من إجازات نهاية الأسبوع، اجتمعت الأسرة كعادتها : رجال مرموقون، حسنو الطلعة عليهم مهابة اليسر: مزارعون ، ضباط ، رجال أعمال، مدرسون، أساتذة جامعة، أصحاب أراض .

اختارت هذا اليوم لتواجه الجميع مرة واحدة، لاتريد أن تجزىء معركتها. كما سحبها خلفه، جرجرته وراء ها .

اشتركا مع آخرين فى سيارة واحدة تنقلهم إلى البلدة، عرفها بعض الركاب، فضولى منهم، سألها «من يكون الفتى؟»، لم تشأ أن تجيب، قبل أن تعلن الأسرة الخبر، كانت تحلم بعرس وزفة، وليكن بعد ذلك مايكون فلها أسرة ـ بحق ـ قادرة .

هكذا قالت له، ولهذا جرجر نفسه وراءها، لم يحصل من دراسته إلا على شهادة لن تتيح له فرصة عمل حقيقية. ربما تكون أسرتها سببا فى إقالتها من عثرتها .

مضغا كلاماً فخماً عن شراكة الحياة، وعن قيمة العمل، وعابا تكالب الناس على المادة، لكنهما اليوم يواجهان حياة بدايتها وعرة .

سقطت من السيارة فى موازاة السكة الحديدية، وسقط خلفها بقميصه القطنى الذى تكاد أزراره أن تنفلت، وبنطلونه الأوحد بعد أن حجز الأخ حتى على ملابسه، وشبشباً ارتضاه للخروج .

اجتازا خط السكة الحديدية، ومضيا فى اتجاه السوق، ثم انعطفا إلى عطفة ضيقة يحدها مسجد صغير .

قالت :

ـ هذه هى بيوتنا، المسجد والمضيفة هما المدخل اليهما .

حاول أن يحاذيها، كانت تسبقه بخطوات ـ بدت متعجلة لا إرادة ، تعطل العقل منها، وشلُ التفكير .

ظهرت أول عتبة من عتبات بيوت كثيرة، تشكل مربعاً كبيراً تتوسطه ساحة فسيحة .

تلك هى بيوت الأسرة، كل مبنى من هذه المبانى يحمل اسم صاحبه، لذلك فالوصول اليهم سهل جداً، يكفى اسم الحى، واسم من تريد حتى يضعك أول من تسأله على العتبة الصحيحة .

أشارت إلى أول البيوت الملتصقة بظهر الجامع .

ـ هذا هو بيتنا، أبى بالداخل، هذه سيارته، وهذه ركوبة الخال أدهم.

ـ « ترى كيف يكون وقع الخبر عليه، ها هى ماهنور بنت ماهيتاب تتزوج هى الأخرى غيره لكن هل كان يطمح إلى الزواج منها، ربما » .

ـ وتلك سيارة ضابط الشرطة .

ـ « ترى كيف ابن الخالة، هل كبر، كيف يكون وقع الخبر عليه هو الآخر » .

ـ وهذه كاريتة الأقارب المزارعين .

صمتَ .

بدت كمن تفاخر بأسرتها .

ارتقت درجات أربع ترفعها إلى الطابق الأول، حيث بالتأكيد يعقد الرجال جلستهم في المقعدة. ذات المكان الذى تفجرت فيه انثى تتمدد رغبتها .

طرقت الباب، فتحت لها الأخت الصغرى، انطلقت تعلن الخبر بفرح غامر :

ـ أبلة جت .

قام الأب والعم والخال وابن العم ليستقبلوا فتاتهم الأثيرة .

رحبوا بالضيف .

انتفض الأب :

ـ هذا البيت لن تدخليه بعد اليوم .

جاءت دوسة «تتغندر» ترحب بكبرى البنات .

ـ « ماذا تفعل هذه المرأة هنا؟! ».

قالت المرأة :

ـ كان نفسى تفرحى معانا، دانا كت احطك فى حبابى عينيا .

نهرها الرجل .

ـ « هكذا » .

قالت ماهنور .

ـ « بينى وبينك هذه الفعلة الى الأبد ».

قامت، وقام وراءها عبد المعبود تشيعه بصقة غليظة من عم عجوز، لم يعرف هل هى تحية وداع، أم خلاصة التبغ الذى يمضغه بلا وعى طوال الوقت .

أسرع الخال أدهم وراءهما تتبعه البنتان، وعلى موقف السيارات العائد إلى الغربية ، احتضنها ، وقبلها ، ووضع فى جيب ردائها مبلغا من المال .

قالت نازك :

ـ اكتبى على العنوان ده .

ودست فى يدها ورقة، عندما فتحتها والسيارة تئوب بهما ، وتتعثر من نتوءات الطريق . قرأت الاسم، هو نفسه اسم ابن الخالة.

والعنوان، هو نفسه عنوان شركة النسيج .

ماذا؟ هل توقف عن التعليم؟. وهل يمشى فى سكة الأب، سعيا وراء نازك ؟!.

★★★

ماكان لها أن تتزوج برجل لاتساعده أحواله المادية على النهوض بحياتهما، تركت البيت والأسرة وعزوة الأهل لتضيع مع هذا الذى لم يتحرك إلا بعد أن وضعت حياتها معه على شفا الهاوية .

أوشكت أن تقول له :

ـ « لا. لن أدخل إلى هذا المكان، الذى ذبحت فيه من غير موضع الذبح، الروائح الكريهة تملؤه، مياه المجارى تتساقط من المواسير الدايبة، البعوض لا يجد بيئة أفضل للتكاثر ولا مرتعا أفضل من لحمها ».

وصرخت:

ـ لا. مش داخلة. يعنى مش داخلة.

اشترك هو والطبيب فى إقناعها .

قال الطبيب:

ـ أنتِ مش عاوزانى آكل لقمة سخنة من إيديكى ولا إيه ؟.

سحبها الزوج من ذراعها لتدخل، ودفعها الصديق من الخلف، حدست أن هذا السفاح الذى أمسك بالمشرط والمقص وقطع فى الرحم ماشاء له جهله، يوشك أن تنزلق كفاه المبسوطتان على ظهرها إلى مواضع محرمة، فلم يكن مايفعله دفعا لها، كان تحسسا للحم الطرى الهاجع تحت الثوب الذى لم يعد له بديل .

كان لابد أن يأكلا، وأن يتحركا، أن تذهب إلى كليتها، وأن تذاكر، وأن تلبس وتشترى الصابون والملح والخبز .

وكان قاعدا لايتحرك ينتظر بصبر لاينفد، القوى العاملة .

وجدت ملاذها عند الصديق.

تكلم الصديق مع صاحب البيت الذى يفتتح محلا للتصوير فى جزء من الشقة التى يشغلونها، وتعلم عبد المعبود التحميض والطبع ومما لأة الزبائن.

لكن ذلك لم يكن كافيا، الرغيف أصبح بقرش، الملح ارتفع مليمين، والطريق من بولاق الدكرور إلى جامعة عين شمس تقطعه مشعلقة فى وسيلتين للمواصلات وأحيانا ثلاثة .

فكرت، رحب عبد المعبود، وأثنى الطبيب على الفكرة .

لتكن البداية مع ابنة صاحب البيت، فى ذات المكان الذى يستقبل فيه عبد المعبود زبائنه لكن كانت تلميذة غبية تلك التى بدأت بها مشروعها لإعطاء دروس تقوية، وبالتأكيد فإن النتيجة التى ستحصل عليها هذه «الجاموسة» ستكون دعاية سيئة لها . التلميذة الواحدة أصبحت تلميذتين.

الذى لم تلحظه ماهنور فى البداية أن عبد المعبود كان يذوب رقة كلما خطرت «فلة» إلى المكان تنتظر قدوم الأستاذة لتبدأ الدرس .

«فلة» كان اسم الدلع، الدارج أن ينادوها بطة، قالت ماهنور:

ـ بل هو الأصح. لأنها تخطر فعلا كبطة بلحمها المكتنز ووجهها اللحيم الذى تكاد النعمة أن تطفح منه. ولو توخوا العدل لأطلقوا عليها «جاموسة» لاتزيد .

تراجعت خطوة قبل أن تتقدم حتى تخرج فلة من خلف الستارة التى تحجب آلة التصوير العتيقة، ويخرج عبد المعبود بعدها ليجلس على الكرسى الوحيد فى المحل خلف لوحة الصور، يستقبل الزبائن. ثم دخلت وكأن شيئا لم يكن. الغريب أنه لم ينتابها أى شعور من أى نوع، لا غيرة ولا غضب ولايحزنون !!

★★★

كانت تتعلق بالواقف أمامها، تتحنح، جفلت، خرج طالب الطب من خلف الحائط الذى كان يسترهما، بدا عليها الاضطراب، لم يكترث سألها إن كانت قد لحقت بمحاضرة اليوم أم لا .

قالت والدماء تغلى فى عروقها ـ نيابة عنه ـ وتصعد الى الدماغ :

ـ هو ده كل اللى همك تعرفه بس ؟

تجاهل السؤال .

فى مداعبة ممجوجة اختلس الشريك أوراقها الخاصة فطاردته لتستردها، حاورها فى أرجاء المكان، دخل حجرته، اقتحمت الباب وراءه، رفع يديه بالأوراق، شبت على أطراف أصابعها لتطولها، طوح بيديه إلى الخلف، اختل توازنها ارتمت على صدره طوق ذراعاه كتفيها، دفعته فتح الباب، فك حصاره، جفلت تقابل الزوج بأنفاس تتهدج .

أدار ظهره ودخل حجرتهما .

★★★

خرجت فى اليوم التالى، وقد حاولت بالقليل الذى تملكه أن تتزين، استقبلتها نبيهة فى بيتها، صحبتها إلى الداخل، وضعت على جسدها فستانا لأخت تصغرها، وأصلحت من مساحيق وجهها، فبدت أكثر قبولا .

فى اليوم التالى خرجت بنفس الملابس لم يسألها من أين لها بها ؟!

ولا إلى أين تذهب كأنما لايكترث، ازدادت حنقا .

ـ « إذا كنت لاتريد ياعبد المعبود أن تعرف لن أقول لك » .

قال لها بعد عودتها فى وقت متأخر :

ـ ماهه مش لازم أسألك عشان تقولى .

ـ ياجبلتك ياأخى .

سألها : ماذا تقول ؟

أجابت :

ـ أحبيك ياسبعي

★★★

كان الليل قد تقدم وهى لا تزال تروح وتجىء بين الحجرات تؤدى عمل زميل اعتذر عن الحضور فى تلك الليلة .

لم تعتن أن تبلغ عبد المعبود بأنها ستلحق فترة عمل بفترة أخرى، المهم أنها اعتادت منذ اليوم الأول لالتحاقها بهذا العمل أن تعود محملة بكل شىء حتى متاعب النفس .

فالإكراميات ليست كلها نابعة من الكرم، بعضهم أو معظمهم يطمع أن يتقاضى المقابل .

ولقد كانت ماهنور بقدها الدقيق المتناسق، وحركتها الدءوب المشتعلة، تحرك لدى الرواد ـ على غير وعى منها ـ خيال المغامرة يضيفونها إلى ذكريات السفر .

كانت تريد أن تثبت لنفسها قبل أى فرد آخر أنها لأمها، وليست لأبيها، وأنها بنت ماهيتاب وليست بنت «دوسة» التى لايعلم أحد بنت من هى ؟.

ألمحت لها زميلة «تمشّى» أمورها مع النزلاء أن للمسألة وجوهاً عدة، وأنها من الممكن أن تحصل على مكاسب كثيرة لو عرفت كيف توائم بين ماتقدر على فعله ومايلهب خيال الزبائن وأنها لو سألت أحدا من المديرين فى هذا الفندق المحترم، سيقول لها بالفم المليان :

« إن الزبون دايما على حق » .

لم تفكر على هذا النحو ولم تحسبها بحساب الحق والباطل، هى لاتعرف لماذا لاتفعل وهى قادرة على المراوغة، فراغ فى العقل كذلك الذى سيطر عليها ليلة أن تدثرت بغطاء واحد على فراش واحد مع شاب فى حجرة مغلقة ربما تكون نورا هى التى تعمل الآن فى خدمة نزلاء ذلك الفندق .

حول زجاجة من النبيذ الفرنسى، دعاها رئيس الخدمة فى الفندق، بعد أن هجع النزلاء وأنهت أعمالها فى الغرف، طوّحت بالزجاجة خلعت اليونيفورم وخرجت لاتنوى أن تعود. ظلت تنتفض طوال الطريق كأنما لم تنادم أحدا من قبل .

أحصت النقود التى تعود بها كل يوم وعلى مدى ستة أشهر .

ـ « لا . لن تخسر المكان ولا الربح بسبب ماحدث بالتأكيد انه تعوّد ألا يرفض له طلب. حتى لو كان جلسة حول كأسين من النبيذ لايدرى أحد ختامها. لا، هو يعرف، ويعرف الآن على وجه الخصوص أن الطريق إليها هى بالذات مسدود » .

الصبر .

« عام أو بعض عام، وتملكين خلو الشقة، وثمن العفش، وتخرجين إلى وش الدنيا. العبء وقع عليك وحدك ياماهنور لكى تقيلى نفسك من تلك العثرة، وليذهب ذلك الغبى إلى حيث لا رجعة » .

ـ « لو أنها سافرت للعمل فى أى بلد مثلما تفعل كثيرات، لتعرضت لمثل هذا أو أكثر ـ أليس اغترابا ذلك الذى تعيشه فى بؤرة المجارى والعفن والبعوض والعمل مضيفة تنظم حجرات الفندق » .

لم تسأل نفســــها، « ولماذا هذا التزمت؟. وكأنها تتدثر بالحبرة واليشمك إلى اليوم » .

ـ « لماذا تضع برقعا حول النفس، ولا تريد أن تنفتح على الدنيا وعلى الحياة كما هى ،وتكسب » .

صرخت:

ـ أنت تخرسى خالص، مش عايزة اسمع منك ولا كلمة .

كانت هذه الأنثى التى تتلون بالرغبة هى التى تطل برأسها من الجحر، لتدفعها إلى قبول مارفضته تلك التى كانت حاضرة ساعة أن دعاها رئيسها لمشاركته كأسا من النبيذ . لكنها لم تتعرف عليها، لم تحادثها لم تفصح عن نفسها لتدفن إذن

داخل أغوار النفس إذا لم تكن لها القدرة على الظهور والسيطرة وأخذ زمام الموقف ونزع مقود المهرة من يد تلك العابثة «ماهى» .

ومع تتابع الأيام، ونظرات ذلك المسئول الفضاحة وابتسامته الساخرة وكلمات ولمسات الداعين وحصارهم، اتقدت تلك الحرقة المتشوفة إلى نشوة عشق، استيقظت فى ليال مؤرقة ـ وعبد المعبود يغط إلى جوارها ـ تلك النبضات المتواترة الندية .

★★★

بدا أمامها فى غلالة من الضباب يتخبط فى طريقه إلى حجرته رغم أن النهار لم ينتصــف بعد ، كانت لابد أن تسنده وأن تضعه فى فراشـــه حتى يفيق مما هو فيه .

ـ «معقول كده؟ فيه بنى آدم بالشكل ده ؟! ».

كان قد نزح من خارج الحدود هاربا من الخنجر والهراوة والطلقة فى الظهر.

لم يكن سوى فأر، نهش أسرار رفاقه فحق عليه عقابهم وعقاب السلطة . لكنها أحبته، أو هكذا توهمت .

لم يخطر ببالها أن تسأله كيف ولا من أين يأتيه هذا المال الذى يسمح له بأن يستأجر حجرة فى هذا الفندق ويتجرع كل هذه الخمر ؟

دفعته إلى الحجرة قبل أن يقع منها على الأرض، واستطاعت بعد جهد أن تلقى بنصفه على الفراش وترفع نصفه الآخر. كان فى إمكانها أن تستدعى أحدا من الزملاء لكنها لم تفعل، أرادت أن يكون لها وحدها .

منذ اليوم الذى شغل فيه حجرته، وهى تراقبه بنصف عين، وتصحو فى داخلها دعوة لم تتبينها .

أوسدت رأسه الوسادة، ومالت تخلع له نعليه، تسللت أصابعه إلى شعرها، تركته يوغل فيه حتى غرقت أطرافها فى تموجاته المخملية، لكن يده سقطت منه فجأة على الفراش .

استدارت مذعورة أفزعتها اليد التى هوت .

فى تلك الليلة المشئومة يوم رحلت الأم رحلتها الأبدية ، كانت هى التى تقف إلى جوارها، تحتضن كفها بين راحتيها لكنها أحست أن اليد المريضة تتصلب، أرخت قبضتها، سقطت اليد على الفراش .

مازال الصدر يختلج، لتتركه حتى يفيق .

فى طريقها لتخرج من الحجرة لمحت بيجامته على الشماعة فى زاوية الحجرة .

ـ « ما الذى يمنع ؟» .

خلعت له ملابسه، وألبسته بيجامته وخرجت .

★★★

كان يجلس إلى البار فى صالة الفندق لمحها تهبط آخر الدرجات متجهة إلى الإدارة ترك كأسه ولحق بها .

ـ أرجوك، المدير لو شافنى مش حيبقى كويس .

كان نصف مخمور تتسع حدقتاه وهو يقاوم ليبقى صاحيا لم تقرأ ملامحه من مثل هذا القرب من قبل، به وسامة ملحوظة لكن ما الذى يشدها إليه بهذا العنف .

طلب منها أن تلحق به فى حجرته .

لم تجب .

استدارت . ثم توقفت . انتبه لوقوفها، توقف هو الآخر .

ـ « عيناه »

وكادت أن تصرخ .

ـ « هما ذات العينين. سوادهما يلمع كحبتى زيتون فى طبق من الحليب » .

ـ « هل يتشابه الناس إلى هذا الحد. »

وابتسمت وهى تمد يدها تفتح باب المدير .

ـ « لعلها أبناء قبيلة عربية واحـدة توزع أفرادها على بلدينا مع الفتح الإسلامى » .

انتظر طويلا لم تحضر .

ـ « فما معنى تلك الابتسامة إذن » .

وقام يتجرع ماتبقى من زجاجة يدخرها لساعة احتياج ثم استلقى على الأرض حتى الصباح .

فتحت الباب مع بدء عملها وجدته فى وضعه ذاك. احتارت هل توقظه أم تتركه حتى يستيقظ من تلقاء نفسه، لم تتردد طويلا، فالأمر الصحيح هو أن تتركه ليس لها بمثل هذا الكائن شأن .

★★★

قال نصف مخمور :

ـ من يرانى على حالى هذا يظلمنى .

وقفت تستمع، كانت تريد أن تعرف .

أردف :

ـ لكل إنسان قدرة واحتمال .

لم تعلق .

قال محتدا :

ـ ليس مطلوبا أن نكون جميعا أبطال .

سكتت :

ـ لستُ بطلا ولا أعرف كيف يكون الأبطال ؟

لعلها تتفهم الآن .

ـ عثرة لسان جرت وراءها كل الأسرار .

سكت ثم أخذت حدته تتصاعد :

ـ هم أكثر براعة منى بلا شك، هؤلاء وأولئك، الأبطال والأنذال على السواء، الضعف صفة إنسانية، وأنا إنسان ضعيف .

ثم قام يمسك بها من كتفيها يهزها بعنف :

ـ لا أحد يعرف كيف يزرع الخوف فى النفس، لو أن واحدا من أولئك الأبطال مشى ليالى وأياما متصلة تطارده طائرات مغيرة سوداء، لما كانت له هذه البطولة ولما احتفظ لنفسه بذرة من عقل، ثلاث سنوات كان عمرى، ضاع الأهل بين النازحين فى عام النكسة الأولى ضِعتُ، ومازال ضائعا. الله وحده يعلم كيف تعلمت وماذا اشتغلت، شربت حليب وكالة الغوث وتجشأت طعامهم، مازال طعم القيء فى حلقى لم تستطع كل أنهار الخمر التى تجرعتها أن تغسل مرارتها. ويحاسبوننى على زلة لسان.

بكت.

قال والبكاء يخنق صوته .

ـ هل تبكين علىّ، أم على الذين ماتوا بسببى، الذى قتلتهم وشايتى. أرشدت عنهم .

اقتربت، أخذت رأسه بين ذراعيها، دفنت وجهه فى صدرها، غسلت دموعها شعره.

ـ أستطيع أن امتنع عن الخمر، لكننى لا أستطيع أن امتنع عن الخوف . صدقينى.

ذابت. ودت لو يذوبا معا، ينصهران فى كيان واحد .

ـ الفلوس لاتخيفنى، سدد الأقوياء فاتورة الحساب بالعملة الصعبة . لكن ماذا بعد أن تنضب فلوس الخيانة .

قالت:

ـ تستطيع أن تعمل هنا وتستقر .

باغتها بالسؤال ثم ابتسم .

خرجت تطلب الطلاق .

وعادت لتجده قد اختفى ترك متعلقاته البسيطة وجواز سفره ومسدسا، واختفى

لعلهم استطاعوا أن يصلوا إليه، أن يقتادوه بوسائلهم إلى حتفه.

أخذت أمها برحيلها المأسوى كل الدموع .

حتى الحبيب لاتجد دموعا تذرفها حزنا على فراقه.. ربما الأبدى .

لن تعود إلى هذا العمل بعد اليوم .

كفاها اغترابا .

★★★

كان يوما مشهودا أيضا يضاف إلى حصيلة الأيام التى شهدت أحداثا صغيرة تتراكم حتى يصبح لها فعلها المؤثر .

دفعت الباب وهى متيقنة أنها ستجد عبد المعبود كامنا فى الظلمة العطنة، فهو لم يكن موجودا فيما اتفق ـ زورا ـ على تسميته باستديو التصوير الذى لم تتوفر له مكونات الاستديو، اللهم إلا إذا كان الكرسى الأسيوطى الذى استدان له صاحبه حجرا من الطريق يسنده به، وطرابيزة المطبخ التى افترض صاحبها أنها مكتب، واللوحة الخشبية التى ثبتت عليها نماذج من انتاج الاستديو الرفيع والكاميرا التى شهدت بدايات عصر التصوير الفوتوغرافى والحجرة التى اقتطعها صاحب الملك من المستأجر الذى هو نفسه طالب الطب والذى يقضى معظم وقته فى مزرعة الأوبئة تلك واسماها: « الأوضة الضلمة »، وهى ماكانت فى حاجة إلى تسميته، فيكفى أن تطأ قدمك أى بقعة فى هذا المكان، سواء الجزء المخصص للاستديو، أو ماتبقى منه

لسكن الطالب لكى تدخل مكانا مظلما دون الحاجة إلى ستارة سوداء كتلك «الخرقة» التى يفردها صاحب الملك على الفتحة الواسعة فى الجدار مكان الباب .

واجهها أول ماخطت إلى الداخل، شبح فتاة فى المواجهة، وعبدالمعبود يجالسها بينما صوت الطالب يأتى من عمق الظلمة فى الداخل يعلن عن قدوم الشربات .

ولم يكن قد مضى الوقت الذى يلزم لمن يدخل هذا المكان لتتسع حدقتا عينيه، وتستطيعا أن تميزا مايغرق فى هذه الظلمة العطنة .

ـ أهلا ماهى .

خرج لهما صوت عبد المعبود. تعالى سلمى على خطيبة عبد الله.

وكأنما لمحت شبح فتاة تقف وتتقدم منها، صرخت وهى تقول :

ـ والله مش معقول .

قالت الفتاة بصوت منغم رخيم :

ـ معقول . ومش معقول ليه ؟

لو كانت الرؤيا تسمح، لاستطاعت أن ترى فتاة فى مثل سنها، حلوة ممشوقة، لكنها لم تسمع إلا صوتا يتلون، وقواما يشغل مساحة لابأس بها، تجعلها مضطرة لأن ترفع رأسها قليلا .

اقتربت الفتاة، فإذا برائحة العطر تختلط بروائح المكان، وتصنع رائحة فريدة لو تشممها أحد صناع العطور، لاكتشف عطرا نفاذا يقبض النفس بالأسى .

ـ « ماذا تفعل هذه الصبية هنا، وفى هذا المكان، ومن أجل هذا المدعى؟. هل سدت جميع المنافذ أمام جميع الصبايا حتى يكون مصيرهما هى وشريكتها فتى محبط، وحجرة مظلمة، تعاشران فيها الخيبة والعطن ؟ ».

كادت أن تسألها :

ـ « ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ».

وكادت أن تعلن عن رغبتها التى حملتها من الفندق إلى هذا المكان :

ـ «تصلين يوم عقدت العزم على التطليق».

ـ «لا . ليس من أجل هذا الغائب عن الوعى».

ـ «لن أخرج من الضياع إلى التيه».

ـ «لا . ليس من أجل واحد، ربما، هى رغبة فى الخلاص. هذه هى الحقيقة».

لكن كل هذه الخواطر ضاعت مع قدوم عبدالله بصينية الشربات، وقد فوجئ بوصول ماهنور:

ـ حالا حجيب لك كبايتك.

ثم أردف:

ـ إيه رأيك؟.

ـ ف إيه؟.

ـ فى العروسة؟

ـ صوتها جميل.

وبانت السخرية.

قال عبدالمعبود وهو ينتفض واقفاً:

ـ أما اخرج أنا قبل الاسطوانة المشروخة ما تبتدى. سايب المحل لوحده بقالي مدة.

صرخت ماهنور:

ـ لأ ماتهربش، خصوصا النهارده، ما تهربش اقعد.

وقعد عبدالمعبود.

★★★

قالت العروس :

ـ لا بالتأكيد . لأ أنا مش زيك، كل واحدة مننا لها ظروفها، أنا جاية هنا وعارفة كويس أنا داخلة على إيه.

ثم أردفت:

ـ على فكرة أنا أعرف المكان ده كويس. ما اقتنعتش إلا بعد ما سكنتوا، أنا مش ضايعة، ولا مش فاهمة حنتنهى لإيه، ومش مخبية حاجة على أهلى، أبويا ع المعاش وأمى ست مريضة، وأنا طالبة طب، وعبدالله معايا فى نفس السنة، لنا أحلامنا اللى تبتدى من هنا، نغير المكان ونسكن فى شقة أحسن، نتخرج، نشتغل، مش مهم لو كل واحد مننا اشتغل فى بلد. المهم إننا حنتقابل ونواصل حياتنا، بالتأكيد، المستقبل لنا.

كلام جميل، مرصوص بعناية، يغلفه حماس البداية، طوح بها إلى لحظات مشابهة وإلى كلام مطابق:

ـ مش مهم أنا مين وأنت مين، مش مهم عبدالمقصود أخوك ولا صادق الزعفرانى أبويا، المهم أنا وأنت، الإنسان قدر نفسه، يعنى لازم نغير ظروفنا ونعيش أحسن .

الآن، وبوضوح تتذكر أن عبدالمعبود كان يتابعها صامتا وقد انزوت ابتسامة على زاوية فمه، رحبت بها وقتها، الآن فقط، استطاعت أن تجد تفسيرا لتلك الابتسامة، لم يكن رضاء، ولم تكن موافقة، ولم تكن رغبة فى مغالبة القدر. إن كانت تعبر عن شىء فى وقتها فهو الإحساس بالضياع، هو إدراك ساخر بالخسارة .

ـ لا. عبدالمعبود ليس عبدالله .

ضحكت الفتاة :

ـ كلنا عبيد الله ياماهى :

الموقف لا يحتمل، أريد الطلاق .

ـ فى يوم عرسى ؟

ـ أنت اللى اخترت اليوم ده . ليه ؟ عشان كل اللى أنا عاوزه يضيع .

★★★

فى ظلام الحجرة التى تختنق فيها الأنفاس برائحة القمامة التى يلقى بها سكان الأدوار العليا لتتجمع فى المنور تحت رءوسهم، والمجارى التى فاضت منذ أيام عن سعتها، والتى تختلط فيها الكلمات بأزيز الباعوض المتكاثر، سألها عبد المعبود:

ـ فيه واحد تانى؟.

أجابت على الفور :

ـ ايوه. وطلبنى. قال لى تقبلى تتجوزينى، أنت ما قلتهاش، جروك زى المشبوهين فى طابور التحريات للمأذون. أكيد شفت طابور التحريات فى القسم وعرفت حاجة عن الهجامين اللى بيفرقعوا الاقفال ويسرقوا يوم لما كان لك صوت ورأى.

ـ اللـــه .

قالها ممطوطة وخبط فخذيه بكفيه:

ـ حنناضل هنا فى الضلمة.

ـ وليه لأ.

قالت بتحد:

ـ مش هى دى شعاراتك. لازم نبدد الضلمة عشان نطلع للنور. أنا لا كان لى ف الضلمة ولا فى النور، صدقتك ومشيت وراك. أنا كنت تلميذة خيبانة. دوختها هى دوخة الناس كلهم حاولت تفوق على إيديك .

ـ قصدك فى حضنى .

قالها وسكت .

ماهنور أيضا سكتت عن الكلام المباح وغير المبـاح ، عسى أن يكون هناك صباح .

★★★

الظلام مازال يعشش فى شقة البدروم المشتركة التى تستقبل عروسا، هذا اليوم هو «صباحيتها». وتحاول العروس الأخرى فى نفس المكان أن تتحرر.

اصطدمت ماهنور بالفتاة تتكور على مقعد فى الصالة الخارجية.

فزعت:

ـ إيه اللى مقعدك كده.

ـ ما عرفتش أنام لحظة. لا م الناموس ولا م الريحة.

ـ استحملى. بكره تطعمى. مش بيقولوا كده برضه فى الكلية.

قالتها، واتجهت لدورة المياه.

ـ استنى. عبدالله هناك.

جلست.

ـ أنا مش حاقدر استمر ولا ليلة بعد كده.

ـ إذا كان قدامك حل اعمليه من دلوقت، حالا، قبل ما يحمض ويبقى زى الأكل الفسدان.

قالت الفتاة وكأنما تحادث نفسها:

ـ ابويا مستعد يستقبلنى فى بيته، أنا اللى رفضت، حاروح له، وإذا كان عبدالله عاوز ييجى معايا أهلا وسهلا.

لم تعلق ماهنور.

ـ كمان أبويا حايش لى قرشين، قال لى لما تحتاجيهم تعالى خديهم.

حادور على سكن، وإذا كان عبدالله عاوز يسكن بفلوسى، أهلا وسهلا.

انتفضت ماهنور يرتعش قدها الدقيق:

ـ اطمّنى حيروح معاكى عند أهلك، وحيسكن بفلوسك، ويعيش وياكل من تعبك لو قدر. اللى يبتدى حياته العملية قبل ما يتخرج بإجهاض مشبوه ممكن يعمل أى حاجة.

لو أن الظلام يكشف وجه الفتاة، لبان تعبير على وجهها، يقول:

ـ «هذا هو عبدالمعبود الذى تتحدثين عنه، عبدالله غير عبدالمعبود».

خرج عبدالله من الحمام.

انتفضت الفتاة، امسكت بيده وسحبته خلفها إلى الداخل.

ـ فيه إيه بس؟

ـ عاوزاك ، لازم نتكلم، نوصل لحل.

★★★

خرجت الفتاة من الحجرة منفعلة، فى نفس الوقت الذى كانت ماهنور تتجه فيه إلى الخروج.

وقفت الفتاة وهى تفتح باب السكن، لينسكب شريط من الضوء حاداً كالسكين، ينكسر على وجه ماهنور، وينالها نصله الحاد:

ـ غلطانة، سامحينى.

واغلقت البـاب وراءها، وتقدمت بخطوات مسرعة إلى الطريق، وهى تلوك انفعالها :

ـ عبدالله زى عبدالمعبود، فولة وانقسمت نصين، عندك حق.

واستدارت لتلوح لها بالسلام.

★★★

أسرعت بمجرد أن بدلت ملابسها وارتدت اليونيفورم، وسحبت عربة الدور، بعد أن اطمأنت إلى أن الأشياء كاملة: فوط الحمام، صابون الوجه، شامبو الشعر والجسد، أسرعت إلى حجرة الفتى المخمور لعله يكون قد أفاق من سكرته لتتأكد ما إذا كان العرض ساريا أم أنه كان كلام سكارى.

فتحت الباب دون أن تطرقه .

فوجئت بنزيل آخر.

ارتمت عينها على ركن المكان، حيث تهيأ لجلسة عربية، لمحت الفطرة والعقال.

قال صاحبهما:

ـ يا هلا، مرحبتين.

تركت العربة، وهرولت تسأل، عرفت أنهم استيقظوا لم يجدوه، لم يعثروا له على أثر.

وقالت موظفة الاستقبال إنها شاهدته يخرج بصحبة اثنين كانا كمن يقتادانه.

وقال رئيس الخدمة:

ـ كانت حجرته تكاد تكون مدمرة، يبدو أنه قاوم بعنف.

وقال مسئول الحسابات:

ـ هذه حيلة يلجأ إليها أولئك الذين يدعون النضال، ليهربوا من الحساب.

وأمرها مدير الخدمة، أن تسلم متعلقاته إلى الأمانات حتى ينتهى التحقيق فى اختفائه.

كانت المتعلقات: أبياتا من شعر خائب عن الضياع والوحدة والخيانة، وأجندة منزوعا معظم أوراقها، وغيارات داخلية، ومسدسا مرفوعا منه خزانة الطلقات، وشريط تسجيل أخفته فى صدرها.

★★★

سلمت عهدتها، وأخلت طرفها، وعادت.

كانت الفتاة قد عادت هى الأخرى من عند الأب.

سألت كل واحدة منهما الأخرى:

ـ إيه الأخبار؟.

ـ أعطانى أبويا الفلوس بتاعتى، يعنى معايا يكفى خلو شقة.

ـ وأنا معايا وأقدر كمان اشترى شوية عفش.

ـ عظيم ندور سوا.

لم تكن الشمس قد سقطت بعد، وهما تعودان، كل منهما تحمل فى حقيبة يدها عقد إيجار شقة فى عقار واحد، ينقصه توقيع زوج كل منهما.

قال عبدالمعبود:

ـ رجالة يا عبدالله، احنا متجوزين رجالة.

علقت الفتاة متضاحكة:

ـ طب ماتقلوش كده، أحسن النتيجة تبقى مش لصالحكم.

قال عبدالله بحدة:

ـ الأيام حتثبت لك إنك غلطانة.

طرقعت ماهنور ضحكة ممطوطة، توقفت لتنصت لصداها.

قالت الفتاة:

ـ إيه الضحكة دى يابت أنت؟.

قالت تنهر ما بداخلها:

ـ «ماهى» اخرسى.

★★★

وظلت نورا تعايش حياتها فترة، فتاة هادئة، تفكر، تجيد اتخاذ القرار وتعرف السبيل لتنفيذه.

أسعد أيام العمر هى ما تعيشين الآن ياهنور، يانورا، ياست الكل.

اشترت حجرة النوم بلاكار، فرشت الأرض حصلت على طقم أسيوطى من تاجر الموبيليا القديمة على الناصية، بعد أيام أحضر لها نفس الرجل دولاب نملية على الطراز القديم، لا بأس، وعدها بثلاجة ثمانية أقدام نصف عمر، اشترت من تاجر

آخر على الناصية الأخرى طقم صالون تقليد الأرابيسك، قبل الرجل تقسيط المبلغ.

لابد من شراء لوازم البيت الضرورية: ملاءات، بشاكير، أطباق، ملاعق، حلل، لمبات كهربائية.

ماذا لو وضعت رفا للكتب مع الطقم الأسيوطى؟

وماذا لو شغلت الصالة الخارجية بترابيزة مستديرة ونيش عال، وعدها نفس التاجر بشرط أن تسدد الأقساط الأولى؟.

باتت تحلم ببيت مكتمل.

ـ لابد تلاقى عمل ولو فى بلد تانية يا عبدالمعبود.

ـ بصراحة بعد اللى عملتيه ده، لازم أحس على دمى شوية.

ـ كتير مش شوية يا عبدالمعبود.

ـ واسيبك؟.

ـ أنا اللى عايزة، عشان مصلحتنا.

★★★

استقبلتها زميلاتها فى الفندق، وقد ظن بعضهن أنها تريد العودة للعمل.

سمعت منهن أنه عاود الظهور، وأنه جاء ليعتذر وليسدد فاتورة الحساب، لم تتحرك عاطفتها نحوه، انتهى، إنها الآن تحب ، عرفت كيف تكون الحياة سهلة ومريحة لو قامت بين طرفيها مودة، صنعت من هذه المودة حبا، أو شيئا كالحب.

أرادت أن تعرف شيئاً واحداً. أين ذلك الرجل الذى كان يشغل حجرة فى الفندق، وعرض عليها أن تشتغل بواسطته فى إحدى البلاد العربية.

رحب بها الرجل، لم تطلب لنفسها عملاً، لقد جربت حظها واغتربت فى هذا المكان، وكادت ما هى أن تطل برأسها وتسيطر.

لا. لا تريد أن تعود إلى بيئة تتفوق فيها ماهى على غيرها، هى تبحث عن عمل لعبد المعبود.

ـ جوزك؟

سأل الرجل ثم اتبعه بسؤال آخر:

ـ وحتقعدى لوحدك هنا؟.

مرة أخرى لم ينتظر الجواب:

ـ يعنى حنشوفك أكيد.

نظر الرجل إلى رد الفعل على وجهها لحظة ثم قال:

ـ طيب ـ ابعتيه أو تعالى معاه وهاتى الأوراق دى وكتب لها قائمة بالطلبات وقبل أن يكتمل نهوضها قال:

ـ بس أنا بآخذ خمسة وعشرين فى المية من الراتب لمدة سنة، من البنات. لا. جايز ما اخدش. شاورى نفسك، بكرة الساعة خمسة، زى دلوقت يعنى.

★★★

بعد أن ركب عبدالمعبود الطائرة فى رحلة الاغتراب، سقط قلب نورا.

هى الآن وحيدة.

بلا تفكير أعطت لسائق التاكسى عنوان نبيهة.

مرة أخرى تقدم لها نبيهة العون.

ـ لقيت لك شغلانة فى صميم تخصصك، دا إذا ما كنتيش نسيتى.

ـ هو أنا اتخرجت عشان أنسى.

ابتسم لها الرجل، وأعطاها مخطوطا.

ـ شغلتك تقرى وتكتبى رأيك. وأهه ده أولنا. إذا قدرت تجيبيه بكره يبقى كويس، بس ما تتأخريش عن يوم أو يومين لأن دى رسالة حتتناقش واحنا عاوزين نصدرها بعد المناقشة مباشرة بعد إضافة كل اللى حيدور فى المناقشة.

مدت يدها تتناول المخطوط وهى تقف نصف وقفة.

لم تغب عنها نظرة ذلك المسئول التى سقطت عند فتحة العنق.

كذلك لم يغب عنه ذراعها البض، المستدير بلا ترهل.

صاحبها حتى باب الخروج، أطال السلام:

ـ على فكرة. ممكن تبقى مسئولة عن تسجيل المناقشة وصياغتها. بس الأول نشوف حتعملى إيه.

انفلتت تغالب شعوراً عارماً، زايلها منذ هجرت تلك الليالى المحتدمة فى تلك الحجرة المطلة على «الوسعاية».

فى الرجل ملامح من الخال «أدهم»، إن لم يكن هناك شبه ما، فالنظرة هى نفسها النظرة، وارتعاش الصوت عند السلام، هو نفس التهدج المتوتر بالرغبة.

★★★

اتسعت ابتسامة عذبة على شفتين رقيقتين اصطبغتا بلون الورد، سرعان ما تلاشت خلف مسحة من قلق تماوج على البشرة الملتهبة بحمرة انفعال تحاول مداراته .

تراقصت أمامها أطياف شخوص، عادت تنبض بالحياة من جديد آتية من زمن بدا أنه موغل فى القدم. فتوهمت أنها عاشت هذه اللحظات من قبل مرات.

كتمت صراخ الأنثى المتأود الذى يثب فى داخلها، يحاول أن يطرد تلك الفتاة الوادعة التى تجالس ذلك الفارس القادم من الغيب يجسد تواترات ظنت أنها رقدت فى الأعماق منذ هجرت البلدة والأهل والناس .

أسدلت كل ستائرها على أمل أن ترفع تحت سترها غلالتها الرقيقة .

كان البحر ممتداً إلى ما لا نهاية .

إلى هذه المدينة جاءت بصحبته .

هو بحجة تخليص ورق للطباعة من الميناء.

وهى لتحضر مناقشة الرسالة وتسجل كل ما يدور بها .

لكنهما منذ أن وطئا الثغر لم يفترقا، ذهب معها إلى الجامعة، ورافقته إلى الجمرك.

★★★

تواثبت فى خفة تجيد اصطناعها وهى تنزلق إلى مكتبه تعرض ما توصلت إليه من رأى فى تلك الرسالة التى تقلبت على جمر ما تتضمنه طوال الليل.

كانت الرسالة تتحدث عن «الخداع الحسى». الإنسان يلعب أدوارا متعددة «صديقا وعدوا».

توقفت طويلا أمام عبارة وردت فى الرسالة عن لسان أحد النماذج موضوع الرسالة، تقول العبارة:

ـ «أشعر أحيانا أننى مؤلف من عدة شخصيات» .

لمعت فى ذهنها العبارة، بالتأكيد قرأتها من قبل، العبارة فى ذهنها لم تبرحه. لم يمض وقت طويل حتى يمكن أن تسقط فى بؤرة النسيان، ثم كيف تنسى عبارة كتلك أرقتها ليالى عدة .

قامت تفتش فى الكتب القليلة التى أودعتها الرف الصغير فى حجرة المعيشة:

ـ «لك الآن حجرة نوم وحجرة معيشة، دفعت ثمنهما اغتراباً» .

امتدت يدها إلى رف الكتب، لكنها لم تبلغ الرف الأعلى، صعدت على مقعد حركته بصعوبة .

ـ «آه. ها هو الكتاب. وها هى العبارة فى موضع المقدمة من الكتاب».

أغبطت نفسها:

ـ أشياء كثيرة لا تنساها بسهولة، وأشياء أخرى تبحر إلى عالم النسيان بمجرد وقوعها» .

ـ هذه ـ القفشة ـ كفيلة بأن ترفعها فى نظره درجات، خاصة وأن الباحث لم ينسب العبارة إلى مصدرها، بل اقتبس منها كأنه مبتدعها».

كانت العبارة الكاملة تقول:

«أشعر فى أحيان كثيرة أننى مؤلف من عدة شخصيات، وأن الشخص الذى يمتلك السلطة العليا فى لحظة من اللحظات لابد أن يعطى القيادة لشخص آخر».

نقلت العبارة كاملة، وكادت أن تضع توقيعها هى، فى مقام توقيع قائلها الأصيل، فلكم هى معبرة.

لكنها كانت فى تلك اللحظة مفتونة بما توصلت إليه، سيكون تقريرها الأول له قنبلة :

ـ «الباحث الذى تستعد الدار لتقديم رسالته إلى القارىء بمجرد إجازتها ينقل عن غيره، دون الإشارة إلى مصادره».

ملأه الحبور، وامتن كثيرا لاجتهادها، بل وأوكل إليها مهمة تعميق البحث وتحرير التقديم بما تصل إليه، بصرف النظر عن المناقشات الأكاديمية، وهكذا يكون الناشر بفضلها قد أسهم فى تعميق الدراسة التى يقدمها إلى القارىء، وأعاد كل الأسانيد إلى أصولها الحقيقية.

احتضنت كفة راحتها.

تمدد العناق مع الحلم إلى البيت.

★★★

هدهدت اهتزازات السيارة وهى تسرع على طريق العودة، ذلك البدن الذى لم تبلغ ذروته مداها، والتى ما كان لها أن تبلغها، نام ذراعه بين تضاريس صدرها الذى لم يرخ قلاعه بعد، وهى تضمه بكلتا راحتيها وتلقى برأس مهوشة على كتفه، وتغمض العينين على حلم قفز محموما من الدفء إلى الطريق، وها هو يصاحبها فى رحلة العودة.

★★★

ضرب صرير باب شقتها الصغيرة وهى تدفعه متقدمة إلى الصالة الضيقة على وتر مشدود، واهتز مع ارتطام الباب وهى تغلقه على وحدتها شرخ فى جدار النفس على وشك الانهيار.

كانت الصالة معتمة رغم النهار، امتدت يدها إلى مفتاح النور، فأضاء لمبة عارية تتدلى من وسط السقف الواطىء إلا أن الضوء الصناعى انبعث كليلاً فضاعف العلة.

الجدران خالية إلا من خيطين من خيوط العنكبوت تدليا من الركن المقابل، ورغم أن بلاط الصالة مغطى بطبقة من الموكيت الشائع إلا أن الدفء لم يتسرب بعد إلى هذا المكان.

بحركة لا إرادية ضمت ذراعيها إلى صدرها واحتضنت الفراغ، القشعريرة سرت مع الحضن الخاوى، وشعور بالتعاسة ملأها.

هذا هو المكان الذى اختارته بنفسها، وحاولت أن تجعل منه عشا مقبولاً، لكن الفراغ مازال يستوطن فيه، وهاهى تعاشر وحدتها منذ سافر الزوج ليبيع فتوته فى السوق الخارجية.

دفعت باب الحجرة الجانبية لتطل بشغف غير مبرر على حجرة الاستقبال التى أرادت أن تكون على ذوقها، فنقل لها الزوج ـ من نفس البائع ـ أثاثا مختلفاً .

ـ «لا معنى للابتئاس إذا لم يتفق اختيار الزوج مع ذوقها».

ـ «كم من الأشياء وقعت فى نفس الدائرة».

أغلقت باب الغرفة لتمضى إلى حجرة نومها وخلوتها، دفعت باب المطبخ وألقت نظرة استوعبت ما به، الثلاجة الصغيرة فى مكانها، والموقد المسطح على قطعة من الرخام المعلقة إلى جوار الحوض، ودولاب المطبخ القديم مغلق على أوانيها القليلة، ثم باب الحمام وبشكيرها المعلق على مسمار بالحائط ، ورائحة الصابون المعطر تفوح ـ رغم رخصه ـ ثم عبرت الفتحة إلى الغرفة الداخلية حيث تتراص بضعة

كتب على أرفف طائرة، تتوسطها صورة للأم التى زوت مبكرة، وتتوسط المكان منضدة عارية بين مقعدين وكنبة أسيوطى على أرضية ممتدة من ذلك الموكيت الشائع .

كانت تريد سكنا هادئا منظما نظيفاً، ليس المهم من يكون الشريك.ارتضت الزوج بعد تلك العثرة، أمر لا مفر منه، ثم اهتز الرضا وها هى تناضل لكى تستمر، فهو لم يؤد طوال هذه السنوات دوره، لكن كان له تميزه على أية حال.

فتحت باب حجرتها، مازال قميص نومها الأحمر الفضاح ملقى على السرير كما تركته منذ الليلة الماضية، ومازال مكان نومها كما تركته، ونعلها يرقد نصف مقلوب أمام السرير.

أغلقت باب حجرة نومها وراءها كمن تريد أن تتوحد بالرغبة، ألقت نظرة فاحصة على نفسها فى المرآة العريضة التى تعلو منضدة الزينة وتشغل حيزاً كبيراً من الحائط .

جسد متواضع، لكن فى تناسق بلا نتوء أو بروز، صدر ربما يشرع قلاعه اليوم أكثر، وجه منسجم الملامح لا يميزه أمر صارخ، شعر كستنائى قلَّم الحلاق طوله فأحاط بالوجه كهالة ربما اكسبته بعضا من الملاحة .

تراجعت إلى الخلف خطوتين لتتسع رؤيتها، اصطدمت بحافة السرير الممدد فى المرآة يحكى عن ليال تقلبت فيها على اتساعه تحت وطأة رغبة قاهرة متجددة، لا تنضب، ثم ها هى الآن وحيدة .

مضت بضع ساعات من ذلك النهار، وهى لا تزال فى حضن شبقها، يعتصر خيالها جرعة من عنف لقاء مع الزوج، تنقلها إلى هذيان استسلام مخمور لفتى باع كل شىء، إلى عطاء فارس الحلم الجديد الذى يجتاح كل الصور والأحلام .

ربما اختارت فيه صورة الأب الذى ابتعد، أو القريب الذى اقترب أكثر مما هو معترف به .

وثبت من الفراش تنفض عن نفسها غبار اللحظة وتستعد ليوم جديد.

كان عليها أن تنهى تقريرها الذى سافرت من أجله، لكنها أرجأت ذلك إلى الغد.

ـ «كم من الأمور تعثرت من العجلة، وسقطت معها».

★★★

صحبته إلى البيت، كان الزوج قد عاد فى اجازة قصيرة، دلف من الباب إلى الصالون، جلس ينتظر، ذهبت لتصنع له القهوة، وقف على باب المطبخ يرقب حركتها، دار مفتاح فى الباب، استعد للانسحاب، اصطدم بالزوج، أخذ امرأته تحت ذراعه وقبلها، شعر أن قبلة الزوج لطمة على وجهه.

دعته إلى الحجرة الداخلية، جلس ثلاثتهم، الزوج فى مواجهته وهى على مقعد آخر أمامه، رفع الزوج قدمه وخلع حذاءه وجوربه وألقى بهما تحت المقعد، حاول أن يتجاهل ما فعله، رمقته بنصف عين وقامت ترفع الحذاء والجورب.

سألته وهى فى طريقها لتغسل يديها من آثار العرق الفواح الذى عبق به المكان:

ـ عجبك بيتى، كان نفسى تدخله بعد ما نستكمله.

قال:

ـ كفايه انك ملياه.

تردد رنين جرس الباب، تهادت تفتح، ترامت أصوات الترحيب، سأل عبدالمعبود:

ـ مين يا ماهى؟

قالت وهى تتقدم بصحبة امرأة فى مثل سنها، بهاؤها ملحوظ:

ـ دى مرَة عبدالله يابن أبو زغلة.

ـ «ابعدى عنها يا نورا، أحسن المقارنة كده مش «بمصلحتك».

وابتسم لعفريت الرجل الذى يملى عليه هذا الكلام، ليحفظه فى سره. كانت امرأة عبدالله تلك، نضرة، فارهة.

تنحى لها الزوج عن مكانه، وجلس غير بعيد.

أرخت الضيفة جسدها وتمددت باسترخاء، ملأ عينيه من ساقيها المنحدرتين باستقامة بجلدهما اللامع المشدود. وكأنها خرجت لتوها من حمام بلدى .

تحدثت .

فى صوتها رخامة .

غرق فى صمت، فضَّاح .

كانت تلك هى شريكة الخن، بدت كمن تلبى دعوة لم يفصح عنها، وبدا كما لو كان مدعوا إلى لقاء مربك .

نما خيط رفيع بين الضيفة، والحبيب .

لمحته بغريزتها، استشاطت غضباً.

ـ «هل أغار عليه؟» .

ـ ربما !!.

طرقت تلك المرأة مع ضيف صاحبتها الأثير، دروب نقاش وعرة..

قال وقد بلغ الحديث ذروته:

ـ الحب والفن والجمال هى أوراق السلوفان التى نزين بها المتعة الجنسية

ـ «هل هذا هو رأيك فى الحب؟» .

★★★

جاءت متألقة تبرق، أفسح لها مكاناً إلى جواره، جلست كمن تعلن أن هذا الذى يختلط سواد شعره باللون الأبيض، هو فتاها، بدا لها أكثر الحاضرين شبابا وتألقا.

انعكست أضواء الزينة على ثوبها الأحمر اللامع، والذى تصبغ انعكاساته وجهها بلون أرجوانى .

انفرجت فتحة الثوب، لتحيط بإطار داكن الحمرة فخذان بضان خلبا لبه.

اقترب منها بكرسيه، مد يداً جريئة تقفل فتحة الرداء، سرت سخونة فى بدنها كله، ارتعش الصدر بالفرحة.

الذى يطالع وجهها فى تلك اللحظة يدرك كم هى سعيدة:

ـ «أن يكون هذا الرجل رجلى، هذا هو المهم».

لم ينتبه إليهما أحد .

تحركت كالفراشة تساعد العروس، وهى باحثة فى المكتب فتنت بباحث شاب ظلت وراءه حتى فتن بها، وجهت إليهما دعوة مشتركة كأنما تربط بينهما.

انتقلت على أكثر من مقعد، زاغت نظراته وراء تحركاتها، التهم أنوثتها. انقضى معظم الليل، تسرب معظم المدعوين، اندمج الزوج مع شلة من صحبة قديمة تحولت ذكريات نضالهم إلى قفشات تثير المرح.

انضمت إليه، التصقت به، ظلل بيده على فتحة ثوبها، لم تشعر بحرج.

وهى تخلع ملابسها فى حجرة النوم، ويطوح الزوج بفردتى حذائه وجوربه، كانت لا تكف عن الثرثرة، حملها الخمر الجيد الذى ارتشفته من كأسه طوال الليل إلى الطيران كفراشة .

سقطت على الفراش، أحست بثقل ذراع الزوج، حاولت الخلاص بلا جدوى، وإن بقى خيالها يعتصر بالرغبة، أحضان الحبيب الغائب عن الوليمة .

★★★

وقفت أمامه تقدم أوراقا، رفع بصره يتأملها، حيية ناضرة ـ أبدا ـ ابتسم لها، رمشت بطرف عينها، انزوت ابتسامة على زاوية الفم فأحدثت انفراجة مائلة، أحبها، انزلقت نظراته .

لم يحجب القميص القطنى بزرقته الفضاحة شيئاً.

ـ «لا . ليس هكذا، أغمض العين عنى أمام الآخرين» .

وانسحبت كراقصة باليه تهتز أعطافها نشوة.

ارتمت تتوسط الفراش، تقلبت على أكثر من جانب، زحفت يد طليقة إلى الصدر تحتضن تكوره، اصطدمت كفها بكرة صغيرة صلبة، توقفت، تحسستها، ازداد وجيب قلبها اضطرابا، عاودت الجس، كانت عضلات الصدر مشدودة بقوة، كذلك تعثرت أصابعها بأكثر من حبة لوز ترقد تحت سطح الجلد الشديد اللمعان والخصوبة.

نهضت مفزوعة لتقف أمام المرآة، تأملت صدرها من كل الاتجاهات، لا شيء يبدو على السطح ، الحلمتان جافتان لم يمتصهما طفل، الجلد مشدود لامع بلا تجاعيد، وبشكل دائرى أخذت تضغط بأصابعها فى اتجاه حلمة الصدر، قبضت على الحلمة بالسبابة والإبهام وأخذت تعتصرها ، عادت لتستلقى على ظهرها ، دارت بأصابعها فى كل اتجاه تضغط صدرها .

حبات كاللوز، شديدة الصلابة، كامنة وسط النسيج.

قالت تخفى فزعها:

ـ لازم اروح لدكتور.

وأخذت يده إلى مواضع من صدرها ، ضغطت بأصابعه على أورام كحبات اللوز شديدة الصلابة .

فى رحلة عذاب طويلة، أدرك كم يحب هذه المرآة.

★★★

سألت:

ـ «ما الذى يمكن أن يحدث؟».

قال الطبيب:

ـ فى إمكانك تقدير الموقف.

ونظر إلى العاشق الآسيان فى محل الزوج.

جرفهما صمت إلى تهاويم مؤسية.

طبيب آخر وخز إبرة فى موضع الورم، لم تفرز شيئا، قال:

ـ لسنا بحاجة إلى تدخل جراحى، لا شيء خبيث.

طبيب ثالث تساءل:

ـ ولماذا وخز الإبر، إن صلابة الورم واضحة، لست متفائلا بنسبة كبيرة.

أخذ الطبيب عينة، وصور أشعة:

ـ «مبـــروك».

قالها الطبيب:

ـ «لك صدر فتاة بكر».

زال الهم والقلق.

ـ «الاضطراب موضعى، وهى حالة غير خبيثة».

قال الذى مزق الرحم:

ـ «انصح بفحص دورى كل عام».

وباتت تباعد شبح الأم عن دماغها، الذى التهب باسترجاعات من بداية الصبا، تولاها وهم أن الأم ربما تكون قد ماتت بسرطان الثدى، وليس بثقب القلب، وعكفت تنتظر نفس المصير.

★★★

٣ .. هوامش لما حدث

تقدم بخطوات وجلة كأنما يخشى أن يكشفه أحد، مجتازا الصالة الخارجية، ملقيا بتحية الصباح إلى السكرتيرة التى تواجه الداخل، تعلو رأسها لفافة قصدت أن تكون حجابا، فإذا بها عمامة مزركشة تتناغم ألوانها مع ظلال العين، مع لون الشفاه، مع العقد المدلى من العنق، مع الوردة الكبيرة التى تعتلى قمة الصدر النافر.

ثم عبر من الصالة الداخلية إلى مكتبه، رمقته عيون فضولية، ربما أجاب بحضوره المتأخر على تساؤلاتها بالسلب، فها هو يعود بمفرده ربما لم يصاحبها فى تلك المهمة الخاطفة إلى الثغر، كما حدس البعض،

مكتبها خال بالطبع، ورغم أن مذاق وجنتها على شفتيه مازال يملأ حسه، إلا أنه حلم فى الطريق أن يدخل ويراها أمامه ككل صباح.

ـ «هل يمكن أن يقع الحب من أول نظرة».

البلاهة تغلف السؤال، هو لا يدرى كيف بدأ الأمر، ولا كيف تطور، فجأة وجد نفسه فى حرقة يلهث.

تسربت ساعات العمل ولم تعد، لا بأس، ربما تستريح إلى الغد.

مضى متريثا يقرأ الوجوه، بحث فى كل الوجوه عن وجه يشبهها، ازدحمت القاهرة، لم يعد وجه يبتسم، احتل القبح موقع الصدارة.

الناس تحت وطأة ذلك الخريف يترنحون، كل شىء يباع ويشترى، حتى الوطن، باعوا الوطن.

لم تكد تمضى سنوات قليلة حين ملأ الناس الشوارع يتضورون.

حذاء ميرى غليظ وطأ الأمعاء، طفحت إفرازات المرارة إلى البلعوم، تقيأ الناس الغضب.

كان الناس يأملون فى رخاء قادم موعود. وهم يترقبون أن يأتى السلام المراوغ بلقمة العيش التي أضحت عسيرة الهضم، وبالهدمة التى أصبحت لا تستر البدن، وبفرصة العمل التى يتبدد الأولاد فى السعى خلف الحدود لاقتناصها، وبحق العلاج والتعليم. هكذا، وصدق الناس الوعود التى قيلت تبريرا للتفريط فى أمانة الوطن.

فإذا الحكومة تعلن «إجراءات حاسمة» لمواجهة العجز الداخلى والخارجى وارتفاع الأسعار، وبينما كانت أبواق الحاكمين تعلن عن «الآمال والاحتمالات والممكن» ، كانت أسعار السكر والعيش تقفز، وبدلا من تنفيذ الوعد بتوفير الغذاء والكساء صدرت قرارات ذلك اليوم من يناير المشئوم، مفاجأة تحيل بالكارثة، وكان رد فعل الجماهير التلقائى يعصف بكل العقول وبكل الأنظمة وبكل التدابير.

فى طريقه إلى ممارسة حياة يومية رتيبة وسط الكآبة والضجر واليأس واجهته جموع الغاضبين تتقدم في إعصار مدمر، تهدر حناجرها «احنا الطلبة مع العمال ضد تحالف رأس المال».

ـ «يا حبيبتى يا مصر ـ منذ متى ونحن قعود عن الفعل الحلال، لتكن قومة لا تخمد».

واندفع. صرخ مع الصارخين حتى تمزقت أحباله الصوتية: «يا أمريكا لمى فلوسك بكره الشعب العربى يدوسك». «الصهيونى فوق ترابى والمباحث على بابى».

وسط هذا الخضم الملتهب بعواء الجائعين ألقى بكيانه وعقله يصارع مع المصارعين.

منذ فترة كان قد سلم الراية. لم يعد ذلك الفتى الذى شاهدته شوارع القاهرة، أيام كان يشقى فى الليل ليحصل على ما يقيم الأود له ولأمه ولاخوته، ويتسلل بالنهار ليحصل على قسط من التعليم، زمان مضى، أخذ معه حومة الانفعالات وحدة

الغضب، حتى جذبه الناس إلى نهر الحياة الحقيقية وألقوا به بين أعطافهم يخوض فيما يخوضون.

كان طريحا على فراشه لا يقدر أن يرفع رأسه من فرط الإعياء.

داهمته الشرطة فجرا، اقتادوه إلى حيث مثل أمام قاض سمين، متهما بالتحريض . قضى أياما رهن التوقيف، التقى وراء الأسوار بفتية هم وجه مصر الغاضب.

حتى الغضب، انحبس، غلظت يد السلطة واستطالت.

ـ «أرادت الحكومة أن تحكم بالمباحث، فحكمت المباحث بالحكومة».

عبارة قالها شاب محبوس معه فى زنزانة واسعة تضم ثمانية عشرة آخرين.

نام فى مواجهة الباب الحديدى العالى، يتلقى ضربات الهواء.

عاشر من جديد، شباب مصر، «مستقبلها الحى محبوس هنا وراء الجدران يا ناس» ـ كان يصرخ فى الليل، سمعه ساكن البرش المجاور يحادث نفسه ليلاً، ظن، فى بادئ الأمر، أنه ممن يحلمون بصوت مسموع. لكنه فى مرة جرب أن يبادله الحديث، اكتشف أنه يحادث نفسه كلما جافاه النوم.

كان فتى لم ينته بعد من دراسته. ود لو أن له ابنة يزوجها له، هكذا يكون الشباب.

ـ ما تزعلش أوى يا أستاذ. أنت أول مرة تتحبس؟

اجاب باقتضاب:

ـ يعنى.

ضحك الفتى:

ـ ما هى يعنى دى مش إجابة.

أدار ظهره للفتى يستدعى النوم.

عرف الاحتجاج منذ كان تلميذاً ينال بصعوبة بالغة، قروشا قليلة، من أب هرم قبل الأوان، يشترى بها زاد النهار كله، حتى يئوب فى نهاية اليوم إلى حيث ينتظر ـ غالبا ـ بلا جدوى، لقمة تسد الرمق، يتسلل بها أو بدونها ذلك الأب المغلوب على أمره فى ساعة متأخرة من الليل.

أطلقت تلك الأسرة، أسرته، على رغيف الخبز المستدير: «برشامة».

من أجل هذه البرشامة، خرج الناس ، يملئون فراغ الهواء كله، يصرخون فى ذلك اليوم من يناير اللئيم.

سقط بين الناس، مثله مثل الملايين الذين سقطوا فى ذلك اليوم فى بحر الغضب يجأر مع الغاضبين .

من قبل ركب ترام «الحزب ـ السلطة» ليبلغ الناس كلمته، ترصدته التقارير فلم يسلم من محرريها ولا من قرائها .

عندما طرق ذلك الضابط المفرط فى الطول باب مسكنه، أدرك أن كلام الواشين لم يذهب هباء.

وفى التحقيق سئل عن كلام قديم، هو نفسه لم يذكره، واتهم بتهمة مبتكرة لم يسمع بها من قبل: «تهيئة المناخ» .

ـ «هكذا إذن، الكلام لا يتبدد فى الهواء، ونظرية التراكم التى ظل يتشدق بها مع الرفاق، لا تحدث فعلها إلا فى ملفات الأمن، تتراكم الكلمات التى تطلق على عواهنها، لتكون جملا ذات دلالة، يترجمها أولئك العباقرة القاعدون بالمرصاد لكل كلمة تقال» .

ـ «هم إذن لم يرصدوك فى مظاهرة، كما كنت تتوهم، إنهم ليسوا مكلفين بأن يتعبوا كثيرا، فالملفات القديمة محفوظة على الأرفف للمناسبات، أمر القبض والإحضار الذى صدر بحقه، صدر بحق زميل آخر مات قبل أسبوع من الأحداث، وثالث منذ سنوات وهو يقيم فى أوروبا ورابع قعيد المرض . وآخرون مثلوا للمساءلة عن الأحداث الجارية بقرائن وأدلة من تراث جهات الأمن .

فى ركن من تلك الحجرة التى تضم مكتبا للمحقق، أمامه كرسىّ وعلى الحائط تستند كنبة جلدية كبيرة، انزوى فى زاويتها، غير مهموم فى المرات السابقة، كان القلق والهم يستوليان عليه ويدمران دفاعاته، ذلك لأنه خارج الحبس كانت أفواه مفتوحة عليه أن يمدها بالغذاء. أما اليوم فإن لديهم ما يكفيهم ويزيد. فى السابق كان يؤخذ لأنه يأتى أفعالاً، اليوم تحرك فقط مع التيار، منذ فترة وهو قابع مكتف بالفرجة، الندم كان يتملكه فى السابق لأنه يفرط فى حق آخرين مسئوليته مباشرة عنهم، اليوم يتملكه الندم وربما بعض الخزى لأنه ساكن كالماء الآسن، لا يفيد، ولا يتحرك.

- «هى دعوة صريحة وتحريض مباشر، إذا عملت أو لم تعمل سنأخذك، سنأخذك، فالأكرم لك والأشرف أن يأخذوك بفعلك لا بفعل الآخرين».

- «أنت المسئول أيها الأب الفقير، الهش».

وابتسم له حبا عطرا، كأنما يتجسد أمامه الآن، بإنحناءة قامته، التى لا تستقيم أبدا، وعقدة يديه التى لا تنفك من خلف ظهره، ونظراته الساقطة على موطىء قدميه كأنما يتحسس طريقه أو يتوقع السقوط.

فى تلك الليلة البعيدة كان الجو شتاء، وكانت الأم قد دثرته فى فراشه، عنيت بفرش الغطاء الصوفى تحته، وضعت آخر فوقه، تلفه به كما تلف له سندوتش الصباح إلى المدرسة الخاصة بأولاد الناس فى تلك البلدة التى احتاروا فى تسميتها، فهى عاصمة الوجه البحرى، وهى جزيرة الورد، وهى رمز للحركة الوطنية ضد المستعمر، وهى أوسع مركز للتعليم على مستوى القطر كله.

فى تلك الليلة جاء الأب متأخرا على غير عادته، بخلاف ماهو مألوف فى البلدة التى تنام فيها الحياة مع سقوط الشمس.

تسلل إليه صوته مرتشعا ، هل كان ذلك رعشة برد ، أم رجفة خوف، لم يتبينه.

كان الأب يحمل ملفات وأوراق وأضابير كثيرة، سمع صوته بوضوح وهو يقول

لأمه، التى ضربت صدرها لوعة، كنساء الريف القريب التى يسمع عن عاداتهن ولايراها :

ـ صدر القرار خلاص من النهارده، لازم تتعودوا على عيشة ثانية. فوجىء الأب والأم بالطفل الصغير الذى أصبح رجلا الآن ينوء بأصداء تلك الليلة، فوجىء به يسأل، لم يبخل الأب بالإجابة، اصطحبه للفراش وحكى له حكاية لينام لكن الحكاية ذاتها كانت هى السبب فى أن يجافيه النوم حتى الصباح:

كانت الحكاية عن حاكم ضاق صدره بالكلام.

وها هو اليوم يقف أمام المحقق، يدينه بلسانه.

ـ « من قال إن الناس جميعا، ليسوا أبناء سفاح لأيام الطفولة ».

صحا من غفوته التى طالت على مقعد النيابة الوثير على صوت المحقق يقول ملاطفا :

ـ انت نمت ولا إيه ياللا شد حيلك .

واستطرد:

ـ معلهش حنستضيفك الليلة، وبكره نستأنف التحقيق بعدما يحضر باقى الشهود.

نام ليلته فى القلعة الرهيبة.

على جدران الزنزانة نقشت أسماء زوارها إلى السقف: إكرام، نجم، عصمت، زين، رفعت، فؤاد، أسامة، نبيل، نصيف، حنان، عدلى، حياة. كثيرون، كثيرون ربما محيت أسماء من العصر القديم.

ـ « هل يجد مكانا ليضيف اسمه إلى لائحة الشرف على جدار الزنزانة ».

لم يمكنوه، فتح الباب وتقدم مدير السجن أنيقا لامعا .

ابتسم .

ـ غريبة. مانتاش مكشر زى الباقى.

قال مدير السجن.

ـ وحاكشر ليه. إذا كنتم بتدونى شرف ما استحقوش لازم انبسط.

ـ أنت الظاهر عليك صعب. مانتاش سهل.

ضحك للمحاولة.

تقدم مدير السجن منه، وضع يده على كتفه بمودة مريبة وقال:

ـ ماتيجى نمشى فى الشمس. انت مش بردان فى الزنزانة دى.

ضحك مرة أخرى من استخفاف ذلك الضابط المختال، بذكائه:

ـ لا ياسيدى، يفتح الله، الشمس اللى تيجى من صحبتكم بلاش منها.

تبسط وقال :

ـ اشمعنى.

قال:

ـ قديمة . جدّد.

واستطرد :

ـ أروح الحمام أحسن.

وارب باب الحمام، وأمسك بقشرة من البياض انتزعها من الحائط، كتب اسمه على ظهر الباب الخشبى.

ـ « ربما يعرف الزملاء أنك شرفت » .

ـ « لكن ماالجدوى وأنت محبوس فى زنزانة انفرادية».

من الطاقة العالية المطلة على مساحة بين السجن ومعسكر للجنود، أطل.

ـ « هاهو جندى حراسة شاهر سلاحه ».

حادثه لم يرد عليه.

ـ « أنت أيضا محبوس مثلى ».

ـ « ليس هذا وقت التفلسف وحياتك، امامك تحقيق ونيابة وربما أمر بالحبس يمتد حسب ضمير القاضى، ونصوص قانون الطوارىء، ورغبة السلطان ».

القاضى لم يملك نفسه إلا أن يسجل حيثيات لو كان بعيدا عن مظلة الحصانة لأخذته إلى طابور المتهمين، وربما صنفته كعضو فى أحد الأحزاب المحظور نشاطها، فالفجوة الهائلة التى تمزق قلوب المصريين ونفوسهم بين الآمال المنهارة والواقع المرير، لم تغب عن مجال العقل والمنطق والقاضى يرد تلك الأحداث إلى سببها الأصيل وهو تلك القرارات التى تتصل بالأحداث اتصال المعلول بالعلة والنتيجة بالأسباب.

قالت :

ـ كنت يومها رايحة الفندق، بصراحة رجعت هربانة من الشوارع الجانبية، لقيت عبد المعبود ياولداه، واقف على ناصية الشارع يتفرج . آل ايه قلقان علىّ .

ـ والناس ، الجماعة، الرفاق؟

ـ معظمهم اشترك طبعا ، تلاقى حد منهم كان معاك فى نفس الزنزانة.

ـ احنا جيل وهمه جيل .

ـ التواصل ياسيد.

ـ انقطع الحبل السُرى، من يوم الحل .

ـ المهم، بعضهم تبدد، زى ماصنعنا أنا وعبد المعبود ندور عن وسيلة، أى عمل، عن قرش ، عن لقمة، لغاية لما انكشف الغطا عن الوهم اللى سميناه حب.

سكتت ثم قالت:

ـ لسه باحلم باليوم اللى يضمنى فيه بيت مع إنسان اقتنع بحبه .

حكت أدق التفاصيل، حتى تلك التى يمنع الحياء روايتها .

لامست راحته وجنتها .

قالت :

ـ إيديك فيها حنان غريب .

قال :

ـ عندى مايفيض.

قالت :

ـ خذنى.

وراحت معه بعيدا ، بعيدا .

أسندت الوسادة على ظهر الفراش، وتمددت باسترخاء .

★★★

كفقاعة من الألوان الكثيرة المختلطة بدت هذه الأيام على شاشة الذاكرة . شارع السوق. زمن قديم لكنه يستقر فى القاع .

بائعات الجبن القريش، وأقراص الزبدة الفلاحى، أكوام الجزر الأحمر الذى لاترى له مثيلا فى العاصمة، أكواز «العجور» الصفراء كل ثلاثة بقرش، الفول الحراتى الأخضر بأوراقه التى تفترش المشنات البنية، الذرة المشوى يتدثر بعباءته الخضراء تحت ملابس الفلاحات وفوق رءوسهن، عيدان الحلبة الصابحة من الغيط لفم الآكلين .

وذلك الفتى .

عيون البقرة هى عيونه .

ذراع فتوة يرفع به حمله ويمضى ليتوقف عندها يطالعها تنسدل ستائر من رموش سوداء طويلة كجناحى فراشة. كم كان جميلا ذلك الفتى الذى لاتعرف هل هو فلاح يتاجر بما يحمل، ام مشتر يحمل مايحصل عليه من السوق .

فى الغدو والرواح ، قابع يترصد الطريق حيث ينزلق من الشارع الضيق إلى زحمة السوق ، أو منتصب يراقب مقدمها .

وجيب مربك كان يربك مشيتها إذا لمحته من بعيد ينتظر .

- «ه هذا هو الحب ؟ » .

لم تجرؤ أن تسأل . لكنها عرفت أنه ربما يكون كذلك .

هلعت واضطرب القلب منها واهتز البدن ، لم يكن فى موضعه مثل كل يوم .

ـ « ما الذى جرا؟. أين هو؟ لماذا لم يأت وينتظر مثل كل يوم ؟ كأنها تخوض فى سوق آخر لبلد أخرى !! ».

تلكأت. وقفت عند بائعة العجور .

ـ عجور ياشابة ؟

مدت يدها بالقرش الى المرأة ـ أعطتها ثمرة ..

ـ بكره تجيبى قرش تانى واديكى اتنين يبقى التلاتة بقرشين.

لم تجب كان يوسع الخطو من بعيد ، توقف عندها وهو يلهث، استدارت على عجل تعطى الفلاحة قرشا آخر ، وتأخذ منها كوزا ثانيا، بلا وعى قدمت له كوز العجور. أخذه منها ـ ضربه بقبضة قوية فانفلق نصفين، شرب السكر المذاب فى جوف الثمرة وشرع ينحت اللحم بأسنانه، أرادت أن تفعل مثله تفجر العسل على كم مريلتها وانساب إلى الداخل، وضعت كراساتها تحت إبطها، طالها شىء من البلل، أرادت أن تأكل مثله ـ سال العسل على صدر مريلتها وتسلل إلى القميص الداخلى، توقفت، أتبكى على ماينتظرها أم تضحك على خيبتها .

قال ورذاذ الماء المندفع من فمه يتناثر على وجهها:

ـ حتقدرى تروحى المدرسة كده؟

هزت رأسها بالنفى.

سحبها من يدها إلى البيت، بيته جاءت أمه تربت عليها وتقبلها، خلعت لها ملابسها المتسخة، غسلت لها وجهها ويديها، بلت المريلة بالماء والصابون .

انفتحت مزاريب المياه من السماء تسكب سيلا لاينقطع من الأمطار، هكذا يحدث دائما فى نواحيهم، إذا فتحت السماء جبها، وسقطت الأمطار قل يارحمن يارحيم، الشوارع تصبح بركة هائلة من الماء والطين والروث.

اصطحبها إلى البيت، اخترع حكاية غريبة، سمعتها مع أهلها لأول مرة، ادعى أنها تعثرت وسقطت فى بركة من مياه الأمطار، أنقذتها أمه، ودثرتها بشالها ثم كلفته بتوصيلها إلى بيتها .

ادركته وهو يهبط الدرجات على عجل .

ـ اسمع . اسمع .

توقف وهو يرنو إلى أعلى .

ـ ألا هو انت اسمك ايه ؟.

ـ قاسم .

همست :

ـ أنا اسمي ماهنور .

صعد درجة وهو يفتح فمه دهشة:

ـ ايه ؟ . ماه ايه.

ضحكت :

ـماهن..ور.

ـ مايضرش.

وهبط يكمل الدرجات .

ـ اسمع .

توقف، وقبل أن يستدير لها، قالت :

ـ قول لامك، حاخلى الشال بتاعها معايا.

ومازال شال المرأة، أم قاسم فى حضن حاجاتها الخاصة إلى اليوم. تكرر اللقاء، مرة فى الصباح وهى تغدو إلى المدرسة ومرة عند الظهيرة وهى تئوب الى البيت مارة بالسوق لتشترى حاجيات اليوم التالى.

لم يكن بائعا ولامزارعا. كان نصف بائع ، نصف مشتر، نصف تلميذ، نصف رجل، هكذا شبه نفسه وعندما سألته تفسيرا ، ضحك ملء شدقيه وهو يقول :

ـ أصل الحسبة كده تبقى لمصلحتى .

ـ ازاى.

ـ اجمعى الانصاص دى كلها حتلاقيها اتنين .

وبلهجة لاتخلو من التباهى:

ـ يعنى راجلين فى بعض .

أمنت على كلامه، لكنها بعد لحظة سألته :

ـ ازاى يعنى.

جلسا على حافة حجر فى جانب من السوق يفصص لها حبات الفول الأخضر ويعطيها :

ـ أقول لك بقى أبويا مات السنة اللى فاتت، كان صاحب مرض وهو بسلامته بقى ـ الله يرحمه بقى ـ ماخلفش إلا آنى.

ضحك وهو يستطرد :

ـ أصله ماكانش يقدر.

بان الأسى على وجهها.

ـ بسيطة .

نظرت إليه والدهشة تتملك عليها مشاعرها.

ـ الحياة كده ـ ناس تتولد وناس تموت، لكن اللى يوجع بصحيح الناس لما تموت وهى بتتألم .

مسحت دمعة بطرف إبهامها.

ـ عشان كده أنا قلت استريح. العيا ذل والعيشة فى الذل صعبة .

ـ أنت فى سنة ايه؟

ـ فى الإعداية السنة دى.

ـ ياه يعنى سابقنى بسنتين.

ـ اشترى وابيع واذاكر وأمى تدبر العيشة.

ـ وناوى على أيه بعد كده .

ـ امشى فى سكتى لغاية الآخر، كان نفسه يشوفنى راجل، وحاحقق له اللى كان فى نفسه .

★★★

فى تلك الليلة جلست على رأس أمها وهى تغالب المرض، تتمنى لها أن تستريح، المرض مذلة .

ـ « أحبك لدرجة أنى أطلب لك الموت، مش حتصدقينى يامه. سامحينى » .

وانحنت على رأسها تقبل جبهتها التى تنضح بعرق العلة .

ـ « هل هذه هى رائحة الامهات جميعا، هل كل أم تتضوع مثلك بالعتر».

دخل الرجل :

ـ مين الواد اللى كنت بتتسنكحى معاه فى السوق ده؟.

ـ ده الواد اللى أمه اديتنى الشال بتاعها.

ـ وكان عاوز منك ايه بسلامته .

ـ بيقول لى إن المريلة نشفت.

ـ ولما هى نشفت ماجبهاش ليه.

ـ حيجيبها بكره.

ـ لما تأخذيها منه، ماتعوديش تكلميه تانى. انت فاهمة .

ـ حاضر.

وهكذا كان عندها تصريح رسمى بلقائه غدا وفى العلن أمام الناس جميعا.

ـ « غريبة . طب ليه مايبقاش كل يوم وقدام الناس هو إيه الغلط ف كده؟ » .

قال لها :

ـ معلهش . مش حنغلب.

ـ وهو لازم نستخبى.

ـ بالعكس، احنا حنقعد مع بعض فى النور أكتر.

وفى اليوم التالى، اخذها من يدها وعبرا إلى الشط الآخر، كادت تسقط فى الماء، فلم تكن المعدية إلا جذع شجرة مفلوق نصفين يئن تحت أقدامهما .

على الشط الآخر، كان عم رضوان يزرع مساحة من الأرض لا تتعدى قيراطا، اقتطعها من طرح النهر .

قطف عم رضوان لها ثمرة مليئة من ثمار النهر ـ وهو يقول لها متضاحكا:

ـ ماتستغربيش، أصل صاحب صاحبى يبقى صاحبى.

قبل أن تستوضح مايقصد، كان قاسم يشرح لها :

ـ شوفى، عم رضوان ده. أصله كان فى سالف العصر والأوان، عريس أمى، لكن أمى اختارت أبويا، عم رضوان قفل قلبه على حبه وقعد يزرع ويقلع ويبيع.

ـ اتجوزت ياعم رضوان .

سألته بسرعة، ضحك :

ـ لا .

ـ ليه ؟

قال قاسم :

ـ فضل عم رضوان صاحب أبويا الروح بالروح .

شهقت .

ـ ماتستغربيش، حدوتة حلوة مش كده ؟

ـ ياسلام .

قالتها بحرقة وكادت أن تحكى. حكاية أدهم وماهيتاب. نفس الحكاية. فى هذه اللحظة فهمت، لماذا لايسأل عن أمها إلا من وراء الأهل، ولماذا تفتح أمها دائما أذنيها ناحية الوسعاية تتصنت إلى الخطوات، وتسأل :

ـ مش هو ده خالك أدهم اللى مروّح.

وعدنما ينطفىء نور حجرته المطلة على الأرض الفضاء، تنام .

لم تكن تفهم معظم مايقوله قاسم على شط الترعة، وعم رضوان قابع من بعيد يلقى الحصى فى الماء ويترقب زوال الدوامة التى يحدثها ليصنع غيرها .

لكنها عندما وطئت القاهرة وسقطت فى حضن الجامعة وجرفها تيار التذمر لم تكن تدرك أن قاسم يحصد من على هذا البعد ثمار مازرع بالفطرة ـ عن نصيب الناس، وسوء التوزيع، وعن العدالة الغائبة كلام كثير لم تكن تفهمه .

سألها :

ـ فاهمة .

قالت :

ـ لأ . أنا أحب اسمعك وبس .

فى القاهرة، فهمت عندما أصبحت المعانى أكثر حدة واكثر توصيفا .

كيف استطاع قاسم أن يعى مايصرخ به مثقفو القاهرة، ومسئولو التنظيم، والمنظرون من الرفاق، وهو رهين البلدة والفقر .

هو المسئول إذن، لم تكن نبيهة هى التى ثقفت، كان قاسم هو البادىء، نبيهة دفعتها إلى القراءة والبحث وإلى الضياع وراء الوهم أيضا .

ـ « ياترى أنت فين ياقاسم دلوقت. عامل إيه. نجحت ولا الفقر حاشك » .

ـ « عرفتْ ماذا يعنى الحلم القومى، وماذا تعنى القيمة وماذا تعنى فوائضها، وماذا يعنى التفاوت الطبقى، وماذا يعنى الفقر، لكنها لم تعرف أنها كانت تحبك بكل براءة السن وطهارة النفس والصدق إلا الآن».

حفنه من الرمل المبلل بالماء المالح تفرك جرح القلب الذى يتنزى بالشوق إلى لحظة صدق !

وبكت.

لم تسأل عنه عندما غاب، ولم تذهب إلى عم رضوان لتعرف.

أى قسوة تلك ! بل أى فعل لم ترتكبه يلطخ تلك الذكرى، العبث بابن الخالة، والخال، والزوج بالإكراه والخائب المخمور .

★★★

اعتدلت فى جلستها على الفراش لتؤكد أن « ماهى » التى تعاشره اليوم لاتخاف من أن يقتنصها رجل على قارعة الطريق .

اعتدل هو أيضا وهم أن يقول شيئا لكنها قاطعته قائلة :

ـ « ماهى » هذه لها طبيعة حارة تتطلب خراطيم إطفاء .

وضحكت.

كانت لضحكتها أنغام ماجنة .

لم يضحك .

★★★

ضغط على جرس الباب، فانفتح له على ضجيج جهاز التليفزيون يرطن بالغناء والرقص، بينما يزعق صوت راديو الحجرة الأخرى ينهر الأمهات اللائى لا ترضعن أطفالهن من أثدائهن ، ينام على صوته أم طاعنة فى السن، لاتعرف أولادها من

بعضهم، وعلى مكتبه في الحجرة المقابلة يستمع شاب تتبدد خطاه من جهاز تسجيل إلى أشعار « مظفر النواب » التى يحتفظ بها لنفسه .

أقبلت صبية هى مايسة أخته تتعلق به وتغرد بالكلام.. قبلها ثم أغلق على نفسه باب حجرته فى محاولة يائسة للنوم أو للخلوة .

كان هذا هو الميراث الذى أثقل كاهله طوال سنوات عدة، لم يبد يوما تذمرا واضحا ولا ضيقا يفصح عن شيء.

في المرات التى كان ينتابه فيها ضيق فى التنفس وهو يجالس الأسرة أو يشاركهم الطعام، كان القلق يمازحه، لكنه أبدا لم يستسلم لوسواس المرض .

قال له الطبيب بعد أن تكرر الإحساس بالضيق والاختناق :

ـ صحتك كويسة، مافيكش حاجة، اوصف لى انت عايش ازاى.

فهم مايرمى إليه الطبيب، لم يفصح له عن شيء، وإن حمل حقيبة صغيرة بها ملابس قليلة وسافر حيث يلتقى بالبحر والهواء والسماء المفتوحة .

لم يكن فى حاجة إلى أن يقول له الطبيب. « خذ اجازة أو غيّر جو » مثلما يقولون عادة عندما تضيق بهم الحيل، أعطى لنفسه أجازة وحاول أن يغير جوّ. لكنه لم يطق الاستمرار. وراءه مسئولية فتاة كانت تختتم مرحلة الدراسة الثانوية، والآخر، يهمل فى دراسته للقانون رغم أنه مهدد بالفصل لتجاوزه مرات الرسوب وليناضل على القهاوى رافعا سيفا خشبيا يحاول أن يعقد مقارنة عقيمة بما كان يجب وما لم يحدث وما يجب حدوثه باعتبار أنهم الجيل الذى حمل الشعلة بعد أن سقطت من أيديهم وكادت ان تطفئها نعال السلطة، وأم يهدها المرض والشيخوخة، لاتأكل إلا إذا جهز لها الطعام بنفسه، ولاتأخذ الدواء إلا إذا أعطاه لها، ولاتنام إلا بعد أن تسمع صوته وتطمئن الى وجوده .

تسلل الهدوء إلى حجرة نومه بعد أن أخمد الجميع أجهزتهم .

هاجت فى النفس الخواطر .



رشف قهوة الصباح على عجل وهو يحاول أن ينفلت هاربا من ذلك البيت الذى يضغط على أعصابه ويكاد يورثه جنونا .

كم من الناس ألقيت على عواتقهم مسئوليات يحاولون التخلص منها بلا جدوى.

ـ « هل يعانى ضعفا ؟.

ـ « ربما !! »

ـ « هل عدم القدرة على ممارسة القسوة، ضعف ؟ »

ـ « ربما !! » .

ـ هل تطبيق القول على الفعل ضعف؟

ـ ربما .

ـ « حب الآخرين، هل هو ضعف ؟ ».

ـ « بالتأكيد إن الاستسلام للواقع ضعف، وعدم مغالبة الظروف ضعف والخضوع لنزوات الآخرين، ضعف » .

ـ « هو إنسان ضعيف بالتأكيد » .

ـ « وهو إنسان قوى لنفس الأسباب » .

ـ « هل هو شخصان فى واحد » .

ـ « ربما !! » .

يومه يبدأ بالصداع، وهو لم يبرح بعد هذا المكان .

قوة أقوى منه كانت تدعوه للتريث والانتظار، فليس مطلوبا منه أن ينتظم فى الحضور، أو أن يوجد فى موعد محدد، فالأمور تسير .

بأسلوب البقال اليونانى الذى يترك متجره لعماله يوزعون ملكيته فيما بينهم، ترك رفيق المشوار له وللآخرين هذه الدار، يديرونها .

ابتدع أسلوبا للمشاركة وزع الأسهم على العاملين بنسبة الأجر إلى رأس المال

مع احتساب المدة، وكون من الشركاء مجلسا يدير العمل، ومضى يعمل بالمشاركة مع الآخرين، يتقاسمون الربح ويواجهون معا الأعاصير .

كثيرة تلك الأعاصير :

العسكر لايريدون للكلمة أن تسمع، فما بالك إذا كانت هذه الكلمة نفسها، تكتب وترص في حروف، وتطبع على ورق يصدر إلى الناس .

البنوك التي استوردت للدار اللوازم من الورق والأحبار من حساب بات مكشوفا الآن .

هذا العدد من الشباب الذي يقترف العمل المجّرم بقوانين العيب وأمن الوطن والمواطن ونزوات الغيبوبة، ماذا يكون مصيرهم لو أن هذا الباب أغلق - أيضا - في وجوههم؟.

بل هذه الشقية التي تتقافز حوله، تنبش بأظافر حادة في بئر وحدته.

لا ازدحام الحياة في ذلك البيت الذي يصلب أعمدته بالقليل المتاح، ولا معاشرة الأقارب وصخبهم وعبثهم ونزواتهم، تبعد عنه الإحساس بالوحدة.

لاك الشعارات ووقع في براثنها .

- « الواحد للكل » .

- « دارتينيان، فارس الفرسان الثلاثة. أنت ؟ ».

- « لكن . هل الكل للواحد ؟ »

- « لايستطيع أن يجزم » .

- « وهل هو فعلا الفارس المتوحد يشرع قلمه يحارب الظلم ؟ » .

- « الظلم في بلدنا ياسيد لاينفع معه سيف ولا هراوة ولابارودة ولاقلم مسنون. سبقك إلى المحاولة فارس أكثر تفردا وقدرة، لايحمل سيفا ولاهراوة، لكن يحرك جيشا » .

ـ « ما الذى حدث ».

ـ « انهارت واجهة الظلم، لكن النور لم يدخل بالقدر الكافى ليكشف أعشاش الظلام » .

كلام لو صح أن يقال على جماهير حاشدة لحظى بتصفيق حاد، وهتاف هائج، ولانتهى الأمر كما انتهى مرات من قبل، نفس النهاية، يبيت المصفقون فى حضن أسرهم، ويغيب الناعقون وراء القضبان.

سكب الزاحفون بالقوة إلى سدة السلطان، الماء البارد على المرجل الذى يغلى، كان شعبا ينضج، العمال والطلبة، الجنود والأفندية، القنال، الاسماعيلية، الحريق .

ثم الماء البارد ينسكب من فوهة البارودة وتخمد النار .

« لكن لكل نار رماد ».

ـ « ولكل رماد جذوة متقدة يطوى عليها أعطافه ».

ـ « هل أنت واثق ياسيد أن النار تكمن تحت الرماد؟ ».

ـ « لايأتى اليقين من قبل ولامن بعد » .

القاهرة فى ذلك الشتاء القارص من يناير تصطلى باللهيب، المرجل يغلى، السرايا تحرق، الشرطة تتمرد، الاخوان يرتعون فى الفوضى، الشيوعيون يحترقون بالنار اللاهبة، الانجليز يرصدون، الأحزاب تتأهب للتصفيق فى انتظار النتيجة.

الطريق من شارع المبتديان بالسيدة، حيث يعمل محررا لإعلانات السلع الرأسمالية بفكر مخالف، إلى حى شبرا حيث يصعد إلى مسكنه على سطوح الدور السادس ليشهد من أعلى القاهرة، وهى تحترق ..

الطريق محفوف بكل المخاطر وسيلته الوحيدة هى المشى على القدمين كل هذه المسافة. حاصرته القنابل المسيلة للدموع، كاد أن يختنق، داهمته قوات الأمن، احتمى فى مدخل إحدى دور العرض، أشعل الذين يحرقون الفن نارا، طاردته سنابك الخيل فى الحوارى الضيقة، اصطدم بعسكرى رديف وضع السونكى فى صدره .

ـ أنا مروّح ياعم .

ـ طب زوّغ من هنا، أحسن الضابط اللي هناك ده رذل أوى .

بلغ البيت، صعد الأدوار الستة خرج الى السطوح الذى يمتد كشرفة، القاهرة تحت قدميه تحترق .

نيرون فى القصر يطعم قادته من الأكل الملوكى .

دمـــوع حارقة تذرفها عيناه، كاد نشيجها أن يسمع عندما جاءت من خلفه تتدلل .

ـ أهلا .

قالها وهو يعطى وجهه للفح النار .

ـ مش تسلم عدل ياجدع انت .

ـ أهلا .

قالها هذا المرة مشحونة بزفرة ضيق.

ـ دى طريقة دى تستقبلنى بيها .

ـ القاهرة بتتحرق قدامك .

ـ بس أنا جايه لك م البلد مخصوص عشان اشوفك، قعدت ازن على ودان أمى لغاية لما سلمت أمرها لله .

وظلت ترغى .

ـ انت مش معايا خالص . بتعيط على ايه ياجدع انت .

كرهها كما يكره ابليس الجنة .

وعادت بنت العم، الحبيبة التى كانت هى الأمل، يشيعها الضيق واللعنة.

وقف الجنود على النواصى والمنافذ الحاكمة يشرعون بنادقهم للصدور، انصياعا للأمر الملكى بفرض الأحكام العسكرية .

نفس هؤلاء الجنود وقفوا يحكمون الشوارع يوم الثورة .

السونكى الذى كان موجها للصدور، أصبح الآن ملء قبضة اليد .

استكان الناس .

اتكلوا من بعد الله الى من يقبض الآن على عاتق الميزان .

نفس هؤلاء الجنود أو أقاربهم، أخوتهم، أولاد عمومتهم، أو حتى أبنائهم أو جيرانهم وقفوا يحكمون مداخل الطرقات فى ذلك اليوم من يناير اللعين، ثورة الجياع تتمدد على مدار الزمن، الغضب مازال هو الذى يعشش فى الصدور، لم يخطُ الناس من زمن الغضب إلى زمن الثورة بعد، تخلفت حركة الجماهير حيث كان المفروض لها أن تتقدم إنها ارتباط العلة بالمعلول، كما جاء فى حيثيات حكم قاضى ذلك الزمان .

مثلما وجد نفسه وسط المعمعة فى الحريق، سقط وسط الموج الهادر فى ذلك اليوم .

بعدما هدأ الناس، هدهم الصراخ والجوع، كان يجرجر قدمين أرهقهما الجرى فى الطرقات أمام عصى الأمن .

وقف أمام أحد الجنود يستعيد أنفاسه . سأله :

ـ إذا شفتنى فى مظاهرة، حتضربنى ؟

قال الجندى بعفوية :

ـ ينكسر دراعى قبل ماالحط صباعى ع الزناد .

★★★

خرجت صغيرته، ابنته، اخته، حبيبته، تقول له إن أمها تطلب الإفطار، وإنها لا تقبله إلا من يده هو .

قام على الفور يقدم الطعام لأمه التى تذوب كحبات الملح فى الماء الدافىء .

عند الباب شبت الفتاة لتطوله، وتطبع قبلة على وجنته، أدرك من أثرها أن مايفعله لايذهب هباء، هاهو يقطف الثمرة ليس أروع من أن تحب الآخرين، ويحبك الآخرون .

ـ حفوت عليك فى المكتب عشان نشترى اللى قلت لك عليه .

ـ « كثرت طلباتك هذه الأيام ياحبيبتى، ليس زواجا ماتقبلين عليه، هذا مشروع لاستنزاف كل ما أملك ياعروسة » .

ضم كتفيها بذراع واحدة إلى صدره، وابتسم وهو يقبل رأسها:

ـ يعنى البوسة مش ببلاش؟

غردت :

ـ لا، طبعا .

أغلقت الباب خلفه وهى تكتم فى نفسها إحساسا جارفا بالحب .

ـ « لو لم يكن لها هذا الأخ ماذا كانت تفعل، بل ماذا كان يفعل الآخرون » .

ضحكت وهى تعلن بصوت مسموع :

ـ والله ، لو جت واحدة تاخدك مننا لاقتلها .

ـ بتكلمى نفسك يامجنونة .

قالها مستظرفا، ذلك الذى يقبع فى انتظار الحل الثورى .

ـ طب انزل شوف لك شغلانة بدل الشعارات اللى أنت داير بيها علينا .

انتفض الآخر كعفريت العلبة وهو يشرع أصبعه فى وجهها :

ـ أنا مابحبش الطريقة دى. هو أنا لاقى شغل وما اشتغلتش، عاملالى فيها محامية، شغل ومش لاقيين، مكاتب محامين ومش حشتغل محامى فى بلد المحامى فيها محبوس مع القاضى بقوانين مصنوعة على مزاج الحاكم .

ـ براڤو، حلو الكلام، مرصوص ومنظم ينفع تقوله فى ميدان عام، لكن قولى عاوز تشتغل إيه سيادتك؟ سباك؟ ماهى النغمة اللى ماشية دلوقت فى عصر العلم والإيمان إن السباكين بيكسبوا أكتر من المهندسين وبالتأكيد أكتر من المحامين .

قطع احتدام المناقشة وتحولها إلى اشتباك بالأيدى يعقبه اعتصام وإضراب عن

الطعام. حتى تعتذر تلك الجاهلة بآليات سوق العمل، أو يطيب الآخر الأكبر خاطره بالاعتراف بأنه زمن تتقدم فيه الفردية على روح الجماعة، بشرط أن يترجم ذلك بمبلغ يدسه له فى جيب البيجاما، أو، يدفعه له تحت الوسادة .

قطع احتدام المناقشة صوت الجرس النحاسى الذى وضعه الأخ الاكبر فى متناول يد الأم المريضة .

ـ شوفيها عايزة إيه .

وسحب جريدة الصباح، وهو يتحسس القلم الرصاص فى جيب بيجامته ودخل يحل الكلمات المتقاطعة، وهو يتخلص من فضلات عشاء كان سمينا لم يحصل الكبير منه على لقمة .

★★★

دعيت إلى حفل الزفاف .

– تقدرى تقولى، أختى، بنتى، المهم إن أنا قدرت احقق الصعب، أصعب الأشياء إنك تجمع راسين فى الحلال .

لم تنم ليلتها ماذا يقصد بعبارته تلك، مازالت فيها بقية من مها، الصبية الريفية التى تفتحت براعمها فى السوق .

ـ « لا. لا، مها ولانورا ولا ماهنور ولاحتى ماهى تقبل مثل هذا التلميح، طبعا الأمر بالنسبة إليه كان سهلا، لهذا قالها بجرأة، لايستطيع أن يدعى أنها ذلة لسان، مثله لايذل لسانه أبدا هو يعرف كيف يصوغ مايريد بالقالب الذى يريد، فى الوقت الذى يسمح » .

★★★

استمعت إلى الشريط المرسل إليها من دولة الإغتراب بسماعة اذن، اندفعت تقتحم غرفة مكتبه :

ـ بيقول إنه جاى قريب.

بمشاعر مراهقة أحس أن الدنيا تنغلق وأنه وقع فى الحصار.

قال :

ـ ما العمل ؟

قالت :

ـ كفاية كده.

سلاح مثلوم ينغرز بين أضلعه، ويستقر.

وجوه كثيرة تداخلت، ازدحمت شاشة العرض الباطنة بتلك الوجوه التى مرت ومر زمانها .

لكن الصور تتكرر برتابة مملة .

لقد ركدت الحياة .

مامن مرة ينفتح فيها قلبه، لصبية أو لفتاة أو لامرأة إلا وتفتح لها ذراع آخر ليضمها .

مامن فرصة تجيء، إلا وتتبدد مع الأيام لتصبح ذكرى .

أول صبية أحبها كانت لاتزال تعقد شعرها فى ضفيرة أو ضفيرتين زفت وهى لا تزال تلعب الحجلة على السطوح، وهو لم يخلع « الشورت » بعد، ولم يخشوشن صوته. يصحو من الصباح الباكر ليقف تحت شرفتها حتى تأتى العربة الحنطور لتنقلها إلى مدرستها فى الحى الآخر، ويظل يركض خلف العربة. وهى ترمقه وتضحك. يظل يجرى ويناله لسعة كرباج عربجى الحنطور عندما يصيح به الأولاد « كرباج ورا ياأسطى ». حتى فوجيء ذات غروب بالعربة الحنطور مزركشة تزدان بالورود، تتقدم موكبا من العربات، وهى بداخلها عروس تزف .

أدرك يومها لأول مرة كيف تنغلق جميع أبواب الدنيا، نفس الأحاسيس التى تنتابه اليوم .

ـ « ليس هناك حب أول وحب أخير، هناك حب تحكمه المقدرة وحب يسقط من العجز ».

منذ متى وهو على هذه الحال.

كانت ليلة حاسمة تلك التى نقلته إلى صف العائلين ، بكل تفاصيلها جـاءت :

الامتحانات على الأبواب، أيام وينهى دراسته الثانوية ويبدأ مشواره إلى الجامعة، فالمستقبل، حيث يحلم أن يكسر الشرنقة ويغزل ثوب الحياة على هواه، وكما ارتضى.

صعد الأب الأدوار الستة حيث يشغلون هو وأمه واخوته حجرتين فوق سطح ذلك المنزل. كان يحمل كعادته عشاء بسيطا، لكنه بدا متعبا إلى درجة تمنعه من النطق، جلس على الكنبة التى تتصدر المدخل، أسند رأسه إلى الحائط وراح .

وراحت معه تلك الطمأنينة الزائفة التى كان يصنعها وجوده.

منذ خرجوا من بلدتهم الصغيرة، لمواجهة أم الدنيا، وهو يسعى لأن يجنب أولاده مخاطر كثيرة .

لكن الفأس لم تقع إلا على دماغه هو فقط، شجت رأسه فانشطرت جمع الرؤى والأحلام.

ـ « احنا مالناش نحلم ياصاحبى مش من حقنا » .

قالها صديقه الذى اقتاده إلى أول اجتماع كان محظورا وظل إلى ذات الوقت محظورا.

عندما يجتمع أفراد على حلم واحد، ليس مسموحا لهم أن يحلموا به فى وضح النهار، لذلك لجأ هؤلاء إلى الظلام، جـــاءت اللعبة على هواه.

لكنه مسئول عن لحم بشرى، تبدأ من طفلة لها من العمر عام واحد، وتنتهى بالأم التى اقتربت من الخمسين، بينهما صبى آخر يحلم، له أحلام أبيه .

أن تولد طفلة فى كنف الفقر فهذه جريمة، لكن الجريمة الشنعاء أن يترك الفاعل الأصلى مسرح الجريمة ويهرب فى طريق بلا عودة .

عبارات كثيرة قيلت له على سبيل التعزية، لكنها لم تواسيه.

ـ « ماوجه الفضل فى أنه تركه كبيرا، وماالميزة فى أنه أصبح رجل البيت من بعده ».

لا فضل فى هذا الهروب، ولاميزة فى حرمانه من مواصلة المشوار .

امتلكه حنق شديد على كل المعزين الذين تقيأوا ألفاظا اهترأت .

جلس صاحبه صامتا، ثم فجأة تدافعت الكلمات :

ـ احزن قد ماتقدر . لكن ..

وسكت.

لكن هذه عرف مابعدها يوم قاده إلى ذلك الاجتماع المجّرم لأول مـــرة .

تلقن من أولئك الذين يحلمون سرا، أن الإنسان قدر نفسه، وأنه المسئول رغما عنه عن كل الأخطاء التى اقترفت ضده وعن كل العثرات التى سقط فيه غيره، وعن كل التجاوزات .

لكن هذه، صنعت حاضره، الذى رغم كل شىء مازال يغرق فى ذلك المستنقع .

مرفأ الامان ، مازال خلف الضباب، يبتعد أكثر مما يقترب .

★★★

على ذلك الشاطىء الهاجع على طرف فرع الدلتا، حيث تختلط مياه النهر بالبحر المالح التقيا، جاء ت به إليه . شعور متوثب باللذة كان يسيطر عليها وهى تراهما كديكى المصارعة يواجه كل منهما الآخر .

بدا ثابتا لدرجة مجنونة، فليس بعاقل من يطأ عواطفه بكل تلك الصرامة.

استقبلتهما اسرته بأناقة .

بدا عبد المعبود إلى جانبها لحيما، يتهيب المشاركة .

لمحت ضيفة خيطا مسحورا يمتد مابين الاثنين ويلتف حول الزوج .

أرادت أن تمارس لهوا أنثويا دعته للجلوس جانبها، تبعته والتصقت به. تغامزت الضيفة وصديقتها المضيفة الصغيرة .

هذه الضيفة قالت :

ـ سندريللا تتزوج ميكانيكى.

ضحكت العروس:

ـ على فكرة، مش ملاحظين إن ده مابقاش شهر عسل دا بقى رحلة كشافة .

طلبت الأم أن ينقلها أحدهم إلى البلاج، تريد ان تقترب من البحر.

قال الأخ الأصغر :

ـ حقها .

طب يافالح قوم معاها .

ـ ماعنديش مانع طبعا، بس الأول اروح السوق أقابل جماعة صحابى زمايل يعنى لو احتجزونى حاكون عند الفطاطرى، حنقعد هناك.

لامفر. أن يأخذها ويترك ضيوفه .

حسمت ماهنور الموقف، قالت :

ـ نروح كلنا .

لم تستشر عبد المعبود، الأم فى الوسط تستند الى ماهنور وتربت على يدها، وهو يسندها من الناحية الأخرى، وعبد المعبود يمضى وراءهم كمن يسوق قطيعا إلى البلاج .

صورة معادة تقدمت فى مخيلتها على كل المشاهد الحية، مثل هذا تماما كان يحدث فى زمان تراه الآن بعيدا، كانت تخطو إلى الثانية عشرة .

هذه اللحظة المكثفة لايمكن أن تمحى من لوح الذاكرة .

كانت الأم عندما تريد أن تقضى حاجتها ترفض أن تفعل ذلك وهى راقدة على فراش المرض :

ـ « ماحدش يشيل أوساخى، كفاية اللى بسببه للجميع » .

أمسكتها من تحت الإبط كما اعتادت، وكما تفعل الآن مع أم الحبيب ومضت بها، داهمها فى منتصف المسافة من الحجرة إلى الحمام،، مغص شديد تقلصت، استحثتها الأم، لم تعد قادرة على الاحتمال، تعثرت الفتاة، ترنحت الأم، انساب بين فخذيها سائل لزج دافىء، أصابت الدوخة الفتاة، تمايلت، تمايلت الأم معها، اصطدمتا بمقعد، سقطت على الأرض الأم على وجهها والبنت تتكور كالشرنقة حول نفسها تغالب الصراخ جاءت الأخت الصغرى، ملأ قلبها رعبا منظر الدماء التى لطخت الأرض ولونت ثوب الأخت، لم تستطع أن تعدل من وضع الأم التى تضاعف وزنها فجأة وثقل، جرت إلى الخالة التى جاء ت تولول، ثم أطلقت زغرودة تزامنت مع دخول الأب ضجرا .

لم تسلم الصبية ليلتها من علقة ساخنة لأنها استقبلت خراطها بكل تلك الضجة وتنبأ لها الأب بالفحش والعار .

لم تفهم، لم تنبهها واحدة من النساء اللاتى تزدحم بهن الأسرة .لماذا زغاريد الخالة، وحنق الأب.

دثرت الأم بالغطاء واحكمت عليها باب حجرتها وذهبت إلى الخالة تستوضح منها .

يومها عرفت أنها لم تعد طفلة يمكنها أن تلهو مع الصبيان كما تشاء لقد دخلت الآن مرحلة أخرى من النضوج، وعليها أن تستعد من اليوم .لكى تمارس حياتها كفتاة، وأن تهيىء نفسها للزواج والإنجاب، فهذه هى علامة الخصوبة عند المرأة .

ملأها ذلك بشعور متناقض لكن انزعاجها ولى وباتت تنتظر الموعد كل شهر وتستعد له .

لم تبلغ الخالة سرها، راحت تلوم الأب على العنف الذى مارسه مع البنت، التى لم يكن لها ذنب ، فلا الأم واعية بدورها ولا امرأة من الأسرة تنبهت قبل الميعاد .

كتم الأب انفعاله، وكانت ليلة ذاقت فيها ماهنور علقة ساخنة جزاء ماذهبت تفضى به إلى الخالة ونزل عليها فرمان الأب، بالقيود الصارمة :

ـ أنا عارف إن العار منتظرنى على ايديكى، خلفة كلها بنات. ربنا عاوز يفضحنى مفيش وراكم غير العار والفضيحة .

حتى الزواج لم يكن له فى نظره إلا معنى واحد هو إضفاء الشرعية على فحش المرأة ، مالا تستطيع المرأة ارتكابه بدون عقد، ترتكبه بعد أن تعقد على الرجل فى حماية المجتمع، وإلا فما معنى التأوهات التى تصدر عنها فى خلوتها مع الزوج.

كانت ماهنور واختاها يفقن فى معظم الليالى على صوت الأم ، وهى تتلقى صفعات الزوج .

ماهنور تتســـــاء ل الآن وهى تعب فى الرمال الرطبة إلى الشاطىء ترفع ام الرجل الذى تأوهت بين أحضانه ماشاء ت، ألا تتأوه له تلك التى اختارها بديلا للأم؟. بالتأكيد. لكن ليس من العدل ألا يشيع الظلم .

خاطر دموى لمع فى ذهنها مع اقتراب الموكب من البحر، ماذا لو دفعت بتلك المرأة إلى الأمواج .

ـ « لماذا تبقى الى هذا العمر وتموت أمها مبكرا ؟ » .

ـ « ولماذا تثب فى نفسها الآن وبالتحديد الثمار الشيطانية التى زرعها ذلك البدائى فى باطنها مع أول بشائر الأنوثة ؟ » .

ـ « لعل الفحش الذى تمارسه أحيانا، إحدى هذه الثمار » .

ـ « ربما » .



أغلق خلفه باب الحجرة فى ذلك الفندق فى ذلك المصيف الذى قادته إليه، ليلتقيا بنبيه وأسرته، ولتكن اجازة الزوج وصلا للعلاقة مع الحبيب .

قال :

ـ أظن من حقنا ياست هانم، بعد مانغيب عن بعض سنة بحالها ـ من حقنا نقعد لوحدنا الشهر الاجازة .

عقدت ذراعيها على صدرها وانتظرت أن يكمل مابدأه.

ـ أنا مش عاوز حد ياخدك منى .

ـ زى مين يعنى اسم الله .

ـ نبيه.

ـ راجل محترم وبيحبنى .

ـ ع العموم هى فترة المصيف، نقضيها بالطول بالعرض، وكل واحد يروح لحاله.

ـ العيشة معاك أصبحت لاتطاق. زيك زى صادق أفندى وزى أدهم المرأة عندكم ركوبة، إلا قاسم ياحبة عينى، يمكن عشان كنا لسه صغيرين .

ـ مين قاسم ماسمعتش عنه قبل كده .

وأخذ يدور حول نفسه فى الحجرة، يخبط كفا بكف، بينما تنضو عن نفسها ملابسها قطعة قطعة كراقصة عرى على مسرح مخمور .

قفز يخلع قميصه متعجلا قبل أن تبرد الجذوة .

★★★

فى حديقة ذلك المكان الذى يحتويهما فى أوقات النهار وسط العاصمة جلسا متقابلين .

لأول مرة حديثهما متوتر.

غرقا فى وهم هدوء صنعاه .

فى هذا اليوم، وفى تلك اللحظة بالتحديد، كان المد ينحسر عن شاطئه إلى وهم مرفأ أكثر أمنا .

ـ «خسارة ».

ـ « أن يحتفظ لنفسه بوقارها . هذا هو الصواب » .

نظرت إليه طويلا، وهو يضع نقودا على المائدة وينهض للانصراف، راقبت حركته المتأنية، وهاتف يدعوها أن تشده إليها من جديد، لم تسمعه وهو يقول مبتعدا :

ـ الجراحة هى الحقيقة الوحيدة فى الطب وفى الحياة .

★★★

صنع لنفسه فنجانا من القهوة، وتخيل أنها هى التى تصبه له، جلس إلى مائدة الطعام والباقون حوله وتخيلها أمامه بمفردها تشاركه لقمته، صنع فطيرة من الحلوى كما اعتاد وتمنى لو يقدمها لها وحدها، تريض فى الطريق وحلم بها تتأبط ذراعه، قرأ كتابا وناقشه فى وحدته معها، اشترى بدلة جديدة وأراد أن تكون أول من يراها .

بدا أمامها وجها جافا، لكنها تدرك عن يقين أن هذا قناع زائف .

ـ « هل يضيع هذا أيضا، كما ضاع المخمور » .

لعلها وهى تمضى تأخذ وراءها إلى هوة الضياع واليأس والقنوط والخيبة كل من يعترض طريق أنوثتها الفائضة عن طاقة امرأة واحدة .

لعله قدرها .

دارت عيناها تعيدان النظر فى الوجوه التى حولها .

هذا الذى يقبع في زاوية الصالة الخارجية، نحيلا تظهر عليه العلة، اكثر مما يبدو صحيحا، زميل هائم، تضيع منه الكلمات ويتحشرج الصوت، اذا مابادلته بضع

كلمات، ويهرول ملبيا إذا ما كلفته بأمر، هائما بذلك القد الدقيق، وبتلك الابتسامة المنزوية أبدا على جانب من الفم، مأسورا بتلك الحركة الدء وب التى لاتعبر عن حيوية بقدر ماتفضح قلقا .

لابأس من مشوار أو مشوارين يصحبها فى الطريق إلى البيت أو إلى أقرب أو أبعد وسيلة مواصلات، تلوك معه كل الأحاديث.

المهم أن يكون لها ظل، ينفصل عنها بمشيئتها، ويتبعها بمشيئتها. وذاك فارع يتخايل كنجم صفيق النظرة واللفظ.

لم تكن فى حاجة إليه، ولا إلى ماتنطق به نظراته وايماءاته وكلماته وتصريحاته .

ـ « ماذا لو لاعبته » .

ـ « اللعب هكذا خطر » .

ـ تعاجب ذلك المختال أمامها، وتمايلت أمامه .

أخذ يرقبها من بعيد :

ـ « إلى أين تريد أن تصل تلك الغبية، لن يعطيك هذا شيئا ».

صرفت النظر :

ـ « لا. لايصلح شهاب لشهاب ».

حتى أحلامها طردته منها. لايصلح حتى لاستمناء الصحو أو الغفوة عادت الوجوه القديمة رفاق الغضب الذى امتصته دروب المشوار . نبيهة، والفتى المحبط، الذى يقارف الآن كتابة القصة، يلوك كلاما لايفهم معظمه، وشريك الليلة اليتيمة فى حضن البرد والهروب والذى أصبح محاميا يلتقط رزقه من أروقة المحاكم .

نبيهة أيضا. أصبح لها طفل تأخذه معها إلى المدرسة، تعهد به إلى الدادة، وتتعهد هى تلاميذ وقعوا بين أيديها، لاحول لهم ولاقوة .

تربعت على شلتة تشكل مع زميلاتها ركنا بسيطا فى ذلك المسكن البسيط، تحتسى مشروبا قدمه لها الزوج الذى كان محرضا على العقد الذى تود من صميم

قلبها أن ينفسخ، وتربعت أمامها تلك الصديقة الحميمة نبيهة يكشف رداؤها القصير عن سمرة صافية، تتبادلان أحاديث انثوية لايصل للزوج منها شيء .

وتناثر في زوايا المكان أصدقاء آخرون، لاتقوم بينهم وشائج بقدر مايواصلون بقوة الدفع .

كانت نبيهة بقوامها المشوق، ووجهها النحيل وبعينيها السوداوين الذكيتين، هي وجهها الآخر، هكذا أخذت تقول وتعيد القول .

تقدم المحامي يحكي عن القصاص، قال :

ـ عشان يثبت لنا إنه ماهواش ابن انجليزية وإنه مصري بروليتاري قوي، شال صندوق بوية وقعد في ميدان سليمان باشا يمسح للناس الجزم .

قال القصاص عن المحامي :

ـ القضية الوحيدة اللي أترافع فيها، دفع القاضي لأول مرة في تاريخ القضاء وبالمخالفة لصحيح القانون أن يغير وصف التهمة لموكله من جنحة لجناية .

واستمر السمر، التأم الشمل، هذه المرة لا يدخله صراخ ولا خوف ولا تدبير، استرخاء .

لكن الصديقتين الحميمتين، انتحيتا جانبا وأخذتا تثرثران بما هو مباح وغير مباح. هكذا كان حالهما من بداية الصداقة إلى أن عادت ماهنور تحاول أن تضفي بتوترها وهما يوحي بحيويتها وحبورها .

لم تقنع الصديقة بالوهم. لمست خيوط التوتر والقلق وهي تنسج نفسها حول تلك الصديقة الأثيرة ، الغامضة حتى عليها في معظم الأحيان، وربما تغمض عن ذاتها أيضا .

ـ « هذه المرأة التي تترنح اليوم بين الصديق والزوج كلاهما يفتح ذراعيه لها لاتريد أن ترسو سفينتها التي تتقاذفها الأنواء. كل الشواطيء مجهولة المراسي، أو هكذا حدست ».

ـ صحيح ماتتصورين .

قالتها ماهنور بحرقة .

استطردت :

ـ حاولت وفشلت.

هى لاتريد أن تكون ـ من جديد ـ مسمارا فى مركب قد يتسرب إليه الماء فى أية لحظة .

تأست الصديقة .

ـ سئمت حمل المتاعب .

★★★

أنعشت لياليها بدعوة الأصدقاء .

كان نجم الجلسة طفل صديقتها نبيهة كثير الصخب، عالى الصوت :

ـ الأطفال عبء أعفيت منه لحكمة .

قالتها وهى تضحك وفى القلب حنين تغالبه .

بقى يستكمل الليلة رفيقان من زمرة الجامعة ارتكن أولهما إلى مضغ الأوهام فرسم نفسه شاعرا على مقهى، ومضى الآخر يمارس هوايته أمام المرآة ويجتر الحسرة على الفنان الذى يتعثر، والفرصة التى لم تطرق بابه بعد .

وظل الاثنان لاتنقطع صلتهما بأى شىء، يمضغان الكلمات الفخمة ويتقاعسان عن الحركة فباتا كورد النيل يعوق التيار ويعكر صفوه الماء أكثر مما يزين المجرى.

سلك الشاعر سبيل أسلافه، فأكل وشرب وتجشأ، وانسلت فى ساعة متأخرة تثقل معدته خطواته، وترنح الفنان إلى منفذ لبداية الطريق .

أتت شريكة الشقة القديمة آخر الليل بعد أن ودعت الزوج فى المطار حيث يلحق بعمله فى أحد المستشفيات البترولية ، وحيث تقبع هى ـ تمارس الطب من فوق المكاتب، فى تلك المستشفى الأميرى الضاربة وسط دروب ضيقة فى حى شعبى،

اختارت العمل فى البدء بين أهله، لحكمة تراها واجبا نضاليا. ثم مع التطلعات التى تنشبها المهنة فى أدمغة أهلها ومع الحاح مطالب العصر التى أصبحت ضرورات، سئمت هذا النمط من الأمراض الذى يشى بالفقر والجهل، هى أيضا تبدل عندها الحلم. مهنة الطب كفيلة بتهيئة حياة لها بريق لو أن ممارستها اختلفت .

استمر العناق طويلا كذلك امتد السمر بين الصديقتين حتى بشائر الصباح .

تحررتا من كل شىء، واستلقيتا على ظهريهما جسدان مفعمان بنضارة تتراجع على أرض الحجرة .

سألت الصديقة :

ـ سافر الزوج. ومش عارفة حاعمل إيه ؟.

ثم ضحكت مستطردة :

ـ الاحتياط لازم .

تعمدت أن ينقص من المبتدأ حرف الياء، حتى لاتدل الجملة على معناها الصحيح.

لكنها قرأتها سليمة .

ضربتها على صدرها فارتج تحت قبضتها المكورة، واستدارت، نام الدرع على الذراع :

ـ وحياتك وهم نامى.

ولم تنم كانت ليلتها الأولى، الزوج مازال طائرا وهى تنشغل بليال قادمة. .

صمتت ثم نطقت:

ـ ما تخلينا نجرب الوهم بتاعك ده شوية.

انتفضت:

ـ مانت عارفه طريقه، روحى انهشيه .

وباتت فى صدرها حتى الصباح غيرة جاءت بعد موعدها .

★★★

أمعن النظر فى تلك الهالة الزرقاء التى أحاطت بالعينين، وبالانتفاخ الذى رسم إطارا حولهمــــا، طوح به الظن، دعكت قلبه ومضة أسى، أشاح بوجهه عنها ومضى.

حاولت أن تصرخ فيه :

ـ « لا. لست أنا تلك التى تظن، لم يمسسنى غيرك» .

وأردفت في سرها :

ـ « حتى الآن على الأقل » .

نهشت نظراته سترها :

ـ « لا. لاشيء يستحق » .

★★★

صاحبت ذلك الزميل الذى بدا إلى جوارها كفرع شجرة جاف، وهى تنصرف .

تابع نزولها الدرجات حتى الباب الخارجي:

ـ سكتك منين ؟

ـ سكتى بالعكس، ممدوح حيوصلنى.

تباعدت بخطوات واسعة، والزميل لايكاد يلحق بها حتى انعطفت فى أول شارع جانبي، اسرعت تلحق بالاتوبيس وهو يتحرك، حاول الزميل اللحاق بها حتى كادت السيارات المارقة أن تنهشه .

راقب ذلك عن بُعد وابتسم؛ سخرية، مرارة، استسلاما لايستطيع أن يحدد، الذى يدركه تماما ويحرك دهشته أنه لم ينفعل لم يتصاعد الدم إلى الدماغ أو يربك ضربات القلب .

عرف مرات من قبل كيف يقطع التيار، كانت الأيام زمانها تأتى إليه بحلم للغد، لكن حساب العمر، اليوم، يتم بالخصم لابالإضافة .

الغد محسوب لك ومحسوب عليّ .

ـ « هل هذه رنة أسى؟. لعلها لاتكون» .

ـ « خريف العمر. وماأدراك ماخريف العمر !» .

ـ « لا، .. فى العمر بقية يادميتى لاتغترى ».

جذبت ضحكة أنثوية، انتباهه:

ـ ياه . أد كده واخداك لبعيد.

التفت، هذا الوجه أعرفه، ملعونة تلك الذاكرة .

ـ مين دى بقى اللى واخدانى ؟

ـ العصفور الكنارية .

قطب مابين حاجبيه يحاول أن يتذكر أو يفهم .

ـ طبعا مش فاكرنى.

قال مكابرا :

ـ لا. فاكرك طبعا، وده معقول .

داعبته :

ـ طب أنا مين ؟.

ـ أنت اللى هى.

وضحك، اتسعت ضحكته، امتزجت بضحكتها، التفت الناس إليهما.

قالت :

ـ الناس بتبص علينا .

قال :

ـ نتدارى .

مدت قبضتها لتمسك بيده، وليبدأ المشوار . توقف :

ـ انت ؟.

ـ أيوه . هو أنا .

ـ انا قلت من يومها .

وتردد، أكملت نيابة عنه :

ـ مش حتعدى على خير، مش كده ؟

ـ بس .

ـ مابسش ولاحاجة، الحياة لاتتوقف ياسيد.

ـ اسمى نبيه.

ـ عارفه.

ـ واسمك ؟.

ـ طبعا نسيته، ليك حق.

ـ مَرة عبد الله . صح ؟

ـ مابلاش كده كاميليا، دكتورة كاميليا .

★★★

في المكان نفسه وعلى الشلتة نفسها ، وبيدها كأس جديد جلست وأمامها نبيهة مضيفتها تحتسى شرابا وتحاول أن تخفى اضطرابا .

ـ مالك . فيه إيه ؟

ـ ما انت عارفة جوزى، مايحبش واحد غريب ييجى من غير دعوة .

نظرت في اتجاه الغريب، أقرب الى الاكتناز، ليس به عيب، في سنها يزيد أو ينقض قليلا لا أحد يستطيع أن يقدر له وجه طفل مستدير، يلمع وجهه المراوغ بحبات العرق ، على زاوية فمه تعبير ثابت لاهو ابتسامة ولا هو انحراف ، لايعبر عن

شىء . الصديق الذى صحبه معه ينشغل عنه بالعجفاء وقد رسمت نفسها شاعرة، حاصرته تفرغ فى دماغه قصيدة .

انجذب إليها، حمل كأسه ونهض فى اتجاهها، تربع إلى جوارها، ارتاحت لمبادرته، ابتسمت له، غضت الصديقة الطرف.

مع ثمالة الكأس الأولى، كانا قد اقتربا أكثر، ساقها التى انحسر الثوب عنه لم تستر عريها، مالت فالتصقت الساق بالساق رغبت أن تمتد اللحظة.

نامت فى الفراش الواسع وحيدة، الحر يترك لزوجته على البدن، خففت من ملابسها، وَدّت لو تفتح النافذة، لكنها تطل على الحارة الضيقة فى مواجهة نافذة الجار .

ثقلت رأسها بما شربت، وهنت النفس ـ أيضا ـ بما حملت، انشغل العقل بما يلوك، جافاها النوم والحلم .

تواعدا على الغداء، حددت له مطعما صغيرا .

وضع الجرسون فاتحا للشهية مع زجاجة البيرة .

قال :

ـ بس احنا ماطلبناش بيرة .

قبل أن يجيب الجرسون، قالت :

ـ وماله، هو اتصرف صح، أنا نفسى فعلا أشرب كباية بيرة .

بينما تتراقص أمامها صور مازالت تنبض بالحياة، كان هذا هو مكانهما المفضل، وهذا الجرسون وضع لها الطلب المعتاد الذى تطلبه .

أمر لنفسه بطبقين من الأرز، وطبقين من الخضار، وطبقين من السلطة، وخبزا، وانعزل يأكل، يسد منافذ الكلام بالطعام .

تأملته ، أكلت على مهل .

لم يتأهل ذلك الوافد الجديد، ليقتحم ليلها المتوحد ، لم يتجسد أمامها رجلا له شرا ع،وقدرة.

حكى لها عن حياته، ولم تحك له عن شيء .

قال :

ـ لمّا طلبت الطلاق، طلقتها .

سألته:

ـ كنت بتحبها ؟

ـ مش كل اللى فى الجواز حب .

تأملت كلماته وهى مستلقية على ظهرها تنظر إلى بياض سقف الحجرة .

ـ « منطق ».

وسرحت مع خيال تراه فيه زوجا ، ترى كيف يكون ؟

عندما قبض على كفها كانت راحته تنضح عرقا يحيل الملمس إلى عصيدة.

صعدت خلفه درجات بيت عتيق، يحاصره دخان المصانع، شقة متواضعة شهدت فصلا من فصول حياته، ليس فيها مايجسد تطلعها، لا الطريق، ولا الدرجات ولا المكان، ولا المنقولات .

ـ « أنا لايهمنى كثرة المال، ولا سابقة الزواج، ولا حتى السن إننى أحلم ببيت يضمنى مع رجل أحبه » .

سقطت جملتها الأخيرة فى الدما غ فطوحته إلى لقاء سابق مع فارس لم يبرح ساحتها بعد .

ـ « كم مرة أطلقت هذه العبارة ؟ ».

خشيت من الدوران حول نفسها .

★★★

أحدث باب شقتها صريره المعتاد، لم يعزف على أعصابها، انزلقت داخله لم يواجهها ذلك الإحساس بالبرودة ، ألقت بنفسها على الفراش بعد أن بدلت ملابس الخروج ، لم يستصرخ جسدها رغبتها، مدت يدها وهى مطروحة على ظهرها تدغدغ مواطن الإثارة لم تتهيج.

كل مافيها خمد.

ربما هو شعور بالارتياح .

ليس له نفاذ نظرات آخر الفرسان ، ولا الأنفاس اللاهثة حتى الخيبة لذلك المخمور، ولاخوار ذلك الفحل الغائب .

هدوء أم ركود؟ لاتدرى.

ابتسامة ميتة معلقة على شفتيه الغليظتين، أم وثوق بالنفس ؟

احتياج للطعام أم نهم ؟

هل هذا هو المرفأ .

ساحتها تبدو خالية من كل قريناتها الكامنات تحت الجلد .

★★★

معبودى الخائن .

وجلست رغم ضجيج الصحبة تكتب رسالة، ثم تسجل على شريط :

ـ « تعال قرنفلتك مش لاقية حد يرويها ولا حتى يشم ريحتها » .

★★★

٤ .. على وجه التقريب

كان الوقت نهارا لايزال، السماء المفتوحة في هذه البقعة من صحراء مصر، تسمح لأشعة الشمس أن تضرب الرأس مباشرة، الحركة أمام المطار تنبض بالحياة .

ـ « عمار يامصر ».

استنشق الهواء .

ملأ الرئتين واستزاد .

ـ تاكسى يابيه ؟.

سأله الحمال ولم ينتظر إجابة، صحب السؤال بإشارة لسيارة أجرة تترقب .

ـ على فين يابيه ؟

تردد .

ـ الأستاذ مصرى .

ـ طبعا .

وأعطاه العنوان، البيت بيته حتى لو تم الطلاق، فليس لها الحق فيه. لاتستطيع أن تتحصن بطفل لتبقى .

صعد الدرجات، وضع الحقائب أمام الباب ضرب ، الجرس لم يتلق إجابة أدار المفتاح فى الباب ودخل .

الصالة خالية، كما هى، إلا من الموكيت واللمبة العارية .

ـ « لماذا لم تشتر السفرة التى قالت عنها فى خطابها قبل الأخير، هل تبددت النقود التى أرسلتها لهذا الغرض ؟ » .

توقف فى منتصف الصالة وباب الشقة مازال مفتوحا، والحقائب لا تزال على عتبة الباب .

ـ « اهه انا جيت لك اهه ماهنور عشان ماتتعلليش بالهجر ولاتخشى على نفسك من الفتنة !! ».

ضحك .

وعلا صوت ضحكاته .

جاء صوتها من خلفه مفاجئا:

ـ بتضحك لوحدك ياعبد المعبود .

انتفض من المفاجأة، كانت الدكتورة كاميليا هى التى تسد فراغ الباب.

ـ كاميليا خضتينى.

ـ هو أنت لسه واصل؟

ـ أيوه، وأنا حتى لسه مادخلتش الشنط .

ـ دى نورا حتفرح أوى لما تشوفك، هى ماتعرفش إن انت جاى ولا إيه ؟

ـ أكيد متوقعة .

ـ هى فين دلوقت ؟

ـ انا اللى أسألك .

ضحكت وهى تنحنى تحمل أصغر حقيبة وتدخل، أكمل نقل الحقائب وأغلق الباب .

قالت بلهوجة :

ـ لا . ماتقفلش .

ـ إيه خايفة م الفتنة انت كمان .

ضحكت وهى تضربه بقبضة يدها على صدره :

ـ أدى اللى عاد ناقص .

ـ أمال إبه يعنى .

ـ أبدا ، سمعت الباب انفتح وما اتقفلش ، طلعت جرى وسبت باب شقتى مفتوح .

ـ انزلى اقفليه وتعالى عاوزك .

ـ اشمعنى .

ـ نتكلم .

طرقعت ضحكة، وهى تمضى إلى الباب :

ـ لا ياخويا أخاف م الفتنة .

قال وهو يعطى الباب ظهره :

ـ على رأيك .

أدار رأسه فى زوايا المكان. العناكب أخذت لنفسها وضعا يستقبل الداخل، الموكيت يبدو وكأنه مترب، تقدم، القى نظرة على المطبخ، كوب به بقايا شاى نمت فوقه طفيليات بيضاء على رخامة الحوض، طبق ووعاء صغير وملعقة جفت فيها بقايا الطعام. فتح الثلاجة، الثلاجة خاوية، حتى زجاجات الماء ناضبة، بالمكان رائحة الهواء المكتوم، العناكب هنا أيضا تحت الأركان. فى الحمام نفس الشىء ملابس معلقة ، صابونة تشققت من الجفاف على الحوض بعض ملابس ماهنور الداخلية مرفوعة على ماسورة البانيو كرايات الاستسلام، بالبانيو بقايا صابون عالقة على الجدران، التراب يفترش سطح المنضدة الصغيرة التى تتوسط الطقم الأسيوطى، بعض أعقاب السجائر فى المنفضة لم ترفع بعد .

فحص أنواعها :

ـ « من ماركات مختلفة هذه الأعقاب، آخرون كانوا معك يدخنون » .

ـ « وتخشى الفتنة !!» .

ـ « لا. لاتأخذ الأمور بمظاهرها، نبيهة تدخن وكاميليا أيضا، أكثرهن شراهة هى ماهنور ، لاينكر ، ماالمشكلة إذا كان بعض الأصدقاء أو الرفاق يزورونها من وقت لآخر. لكن هذه ليست عادتها لايمكن أن تترك البيت هكذا، بقايا طعام، رواسب شاى، تراب. أين هى الآن ياترى؟ هل تغيب عن البيت أوقاتا طويلة ؟ » .

حجرة النوم .

دفع الباب الموارب، استلقى الفراش أمامه كنعش فى مرآة مسحورة، اضاء الكهرباء، وتقدم، مكان نومها بلا ترتيب، قميصها الأحمر الشفاف العارى مكوم على الأرض. قطع من ملابسها الداخلية في أكثر من مكان على أرضية الحجرة .

تسارعت دقات قلبه، لهثت أنفاسه .

أسرع يطرد الخاطر اللئيم .

جلس على حافة الفراش كما كان يفعل دائما، يخلع حذاءه، رفع قدما وشرع يفك رباط الحذاء، فى العمق تحت التسريحة فردة جورب لرجل. أسرع يلتقطها نظر اليها مليا وهو يكاد يقع من الإعياء ثم ألقى بها بعيدا .

ـ « هذا النوع اشتريه دائما من الباعة الجائلين على الأرصفة ، لكن كيف يبقى مدة طويلة هكذا فى هذا المكان؟. ألا تنظف البيت أبدا؟ أم تراها تعيش فى مكان آخر؟ هل هجرت البيت عندما رفعت الدعوى ؟ ».

ـ « بركة توفر متاعب كثيرة » .

لمع فى مخيلته شىء صدم عينيه قام يحجل بقدم واحدة إلى الحمام.

فتح الباب بعنف وكاد يسقط لإندفاعه أمسك بشفرة حلاقة على الرف الزجاجى فوق الحوض .

ـ « هذه الشفرة ما بالها قصيرة ودقيقة بهذا الحجم » .

استولى عليه ضحك هستيرى كأنما ينفض عن نفسه غبار اللحظة هذه الفلبينية

اللعينة تستعمل مثل هذه الشفرات بل إنه فى المرة الأخيرة أحضر لماهنور «باكوين» منها .

ضحكت عليه وقتها وهى تقول :

ـ همّاك أوى الحكاية دى .

ـ أهيه نضافة .

ـ ماتخافش الاجزاخانات بتبيع كل اللوازم جاهزة على الاستعمال، اطمئن .

قرر أن يعفى نفسه من هم التخمين ومن قلق الانتظار أغلق الباب خلفه ونزل الدرجات مسرعا فتحت كاميليا الباب كأنما تترصده :

ـ على فين ؟.

ـ أبدا حتكلم بالتليفون .

ـ تعال اتكلم من عندى .

ـ مبروك .

ـ ماهنور قدمت طلب باسمك .

ـ عال والله .

ودخل، أدار قرص التليفون وسأل عن الأستاذ نبيه الشريف، جاءته الإجابة قاطعة :

ـ مش موجود .

ـ حيرجع امتى ؟

ـ بقاله يومين ماجاش .

سأل عن ماهنور جاءته الإجابة بنفس الطريقة :

ـ دى واخدة أجازة، تخلص بكره .

أغلق السماعة، وشرد .

دخلت كاميليا بكوب الشاى، وبنفس أسلوب الإجابة على المكالمة، قالت :

ـ اطمن فركش من زمان .

ـ يعنى إيه ؟

ـ أصل بتوع السيما، المشخصاتية يعنى، لمايحبوا إن كل واحد يروح لحاله، يقولوا لبعض فركش .

ـ يعنى..

وتركها معلقة لم يكمل الجملة .

ـ تمام.

وطرقعت ضحكة .

ـ هو الدكتور فين أمال ؟

ـ فركش .

ـ بتقولى إيه

ـ لا . مش زى مانت متصور، سافر يشتغل، اشمعنى انت يعنى .

ـ على رأيك .

وكتم بقية المعنى فى صدره وقام .

★★★

دخل الليل وهو لايزال مستلقيا على الفراش بين اليقظة والنوم . حواسه كلها متجهة نحو الباب، ينصت لأقل خطوة على الدرجات، فكر أن يقطع الوقت بالحديث مع كاميليا، لكن يبدو أنها لاتعرف شيئا، حتى إذا كانت تعرف فلن تتكلم .

أشعل عود ثقاب ليرى على ضوئه ساعة معصمه .

ـ « التاسعة ولم تحضر » .

نهض من الفراش والجوع يستحثه، لم يضع فى فمه تقريبا أى شىء منذ

الصباح حتى الطعام الذى قدمته له تلك المضيفة لم ينل منه شيئا. ظلت واقفة على رأسه كالمراقب فى لجان الامتحانات، كان بالفعل يخوض أمامها امتحانا يود أن يكسبه، خشى الرسوب فلم تمتد أصابعه كما تعود إلى الطعام .

ـ «أنظف الأدوات التى تستطيع أن تمسك بها طعاما تدفعه الى جوفك هى يدك، هى الأداة الوحيدة التى تملكها وتتحكم فى نظافتها، مابال هؤلاء المدعين يلجأون الى الأدوات المعدنية بديلا عن أدوات الخالق».

ـ « فى رأسك خرم ينفذ منه هواء الجنون » .

ـ « ما هذا التخريف ياولد ؟ هل تتذكر أين ومتى غسلت يديك، إنك حتى لاتلتزم بالنصيحة الخالدة التى كانت مدونة على ظهور الكراسات، والتى أصبحت ـ الآن ـ كالنقوش الفرعونية لايقرؤها أحد : اغسل يديك قبل الأكل وبعده، ألم أقل لك إن مخك انخرم » .

دس قدميه حافيتين فى حذائه، فالحقائب مازالت مغلقة كما حضر بها ولايذكر اذا كان له جورب هنا فى أى مكان .

ـ « لا بأس كثيرا ماتعقف الحذاء وتدس قدميك فيه دون جورب اشمعنى بتحبكها دلوقت، ماهنور ماهياش هنا، عشان تتنطط زى عفريت العلبة، وتتهرك على تصرفاتك السوقية » .

ـ « لماذا لم تعد بعد ؟ » .

ـ « لاتسأل وأنت تعرف الإجابة لقد باعت هذا البيت » .

ـ « باعت البيت. لا باعت الحياة معك داخل هذا البيت.. هذا هو الصحيح ؟! ».

واتجه ليخرج ، يشترى لنفسه لقمة يأكلها .

ماإن امتدت يده إلى أكرة الباب، حتى فتح فى وجهه دفعة واحدة، وكاد أن يشج رأسه.

صرخت بأعلى صوتها .

فتح الجار باب الشقة المقابلة .

ثم استوعبت وجوده :

ـ عبد المعبود .

وارتمت فى حضنه .

ـ رعبتنى، واقف ورا الباب كده ليه ؟

ـ كنت نازل أجيب لقمة آكلها .

ـ أنا جايية معايـا ، زى ما يكون قلبى حاسس ، دقـايق ويكون الأكل جـاهز، حالا .

تقدمت به إلى الداخل وهى تحيط خصره بذراعها، حمل عنها كيس المأكولات ورفص الباب بمؤخرة قدمه، فأحدث ارتجاجا سمع على إثره صوت باب الجار وهو يغلق .

ـ إيه ده. هو كان واقف يراقبنا ولا إيه .

قالت وهى تمد يدها لتأخذ منه كيس المأكولات وتنعطف إلى المطبخ:

ـ اهه ع الحال ده على طول، مفيش مرة آجى، إلا ما ألاقيه زى مايكون منتظرنى ورا الباب .

وقف عبد المعبود يرقب حركتها وهى تغسل ماعلـق بالحوض وتعد الطعام، وعلامة استفهام تكبر وتكبر حتى تتضخم وتسد عليـه مسارب التفكير، ومنافذ الرؤية، غمامة سوداء قاتمة تعصب عينيه .

قال بصوت حاد وهو يخبط فخذيه بكفيه :

ـ هو إيه الموضوع بالضبط ؟!

أجابت ببساطة قاتلة :

ـ مش قلت لك يامعبودى ، محرمنى ادخل شقتى، ساعات أهرب مايجيش

مخصوص عشان مايفتحش الباب ويبص عليّ. زى مايكون بيتهمنى اتهامات فظيعة لمجرد انى عايشة لواحدى .

وضاع السؤال الفرعى :

ـ « أين كانت ؟ ».

وأخذ معه السؤال الأصلى :

ـ « لماذا طلبت الطلاق ؟ ».

★★★

تربعت على الأرض وقد انحسر الثوب عن فخذيها، وتربع عبد المعبود أمامها وهو يرفع جلبابه عن ساقيه ليتمكن من الجلوس، كانت المنضدة الصغيرة التى تتوسط المكان بينهما، قد رصت عليها الطعام الذى أعـدته .

ـ ماوحشكش أكلى ؟.

أجاب واللقمة تنحشر فى حلقه فتخنق العبارة :

ـ وحشنى .

اتسعت فتحتا أنفها تتشمم ثم قالت وهى تنهض قبل أن تكمل طعامها :

ـ هو انت ماغسلتش رجيلك ؟

رفع بصره إليها، ولم يجب .

ـ حاحضر لك الحمام لغاية ماتاكل.

لايستطيع أن يبتلع الموقف، ماهكذا تكون الأمور، سيشدها من شعرها ويوسعها ضربا .

ـ « لايمكن أن تعبث به بمثل هذه الطريقة. ماذا تريد هذه المرأة » .

وأوشك أن يصرخ :

ـ « تلك طريقة داعرة، كفى عن هذه الطريقة وصارحينى، إذا لم أمت من الغيظ،

سأموت من الحيرة، إذا كنت تسعين لتحطيمي حتى أوافق فأنا موافق، موافق » .

ارتفع صوته مع الكلمة الأخيرة، وجاء صوتها من الداخل :

ـ موافق على إيه ومش موافق على إيه ياعبد المعبود ؟.

همهم:

ـ اللهم اخذيك ياشيطان .

قالت وهى تتقدم تمسح يديها بجلبابها وترتسم ضحكة على شفتيها:

ـ صلِ ع النبى ياحاج أمال، وقوم استحمى، قوم ياراجل .

ألقى باللقمة التى فى يده على المنضدة وتعثر وهو ينهض مضطربا .

شيعته بمصمصة من شفتيها :

ـ استغفر الله، حد يرمى النعمة كده يااسمك إيه ؟

وطرقعت ضحكة .

★★★

لم ينم، شعرت به طوال الليل كأنما يتقلب على جمر النار، لم تشأ أن تتدخل بينه وبين نفسه، لعله يهدأ وينام، لكن، لافائدة.

ـ « جرا إيه ياعبد المعبود، دا اللى زيك لازم يتخمد ينام مايتحركش لسه فيك عافية ، جبار يادى الجدع » .

وضحكت انتشاء، وهى تتعمد ألا يصدر عنها صوت .

سألها :

ـ أنت لسه صاحية ؟

استدارت ناحيته وطوقته بذراعيها، ولم تجب .

ـ اللهم اخذيك ياشيطان .

همهمت فى سرها :

ـ « اوعك تكون ناوى، مقدرش على كده يادى الجدع » .

وأغفت على التمنى بأمر لم يحدث .

★★★

وكان صباح، فتح عينيه على ماهنور تضع أمامه صينية الإفطار :

بيض وجبن قريش ولبن .

ـ مش حافطر، عاوز أشرب شاى .

ـ لا. لازم تاكل الأول ياعينيا .

ـ إيه الحكاية بالضبط .

ودفع بالصينية فتطايرت بما تحمل وهو يقفز من الفراش كأنما يهرب من حصارها له .

قالت وهى تنحنى صاغرة تلملم الطعام المتناثر فى الحجرة:

ـ دى تانى مرة ياسى عبده ترمى فيها الأكل. دا حرام دا، ربنا يحاسبنا ع النعمة اللى بترميها على طول إيدك دى .

ـ سى عبده !!

رنت فى رأسه كالجرس، ناداها فجأة :

ـ قرنفلة .

أجابت .

ـ نعم ياعيون قرنفلة .

مصمص بشفتيه :

ـ سبحان الله .

★★★

خطرت ماهنور إلى مكتبها، وهى تعقد على رأسها منديلا أحمر له حواف

مزخرفة بشغل الأوية، وتنتعل شبشبا فى قدميها، ويزدان فستانها بالكرانيش .

الذى يرى مارتسم على وجه نبيه الشريف وهو يتأملها يستطيع أن يقرأ خطوطا متداخلة من الإندهاش والسخرية والعجب والتساؤل.

أطال النظر .

قالت بقلق :

ـ إيه ؟. وحش اللى أنا عاملاه ده .

لم يجب وأدار وجهه عنها .

قالت بصوت مسموع :

ـ مالها قرنفلة ماهى زى القمر أهه .

كان قد اعتاد أن يراها فى الأيام الأخيرة بكامل زينتها، تتعجل الانصراف .

قال لنفسه مرة،، وهو يبتسم سخرية أو ألما لايدرى :

ـ « هى البنت دى بتحب ولا ايه ؟ » .

لاحظ مرة أخرى أنها لم تبدل فستانها أياما متصلة، استراب :

ـ « انت بتروحى فين بالضبط ؟ » .

★★★

لم يكد يقترب موعد الإنصراف، حتى ظهر عبد المعبود يسأل عنها موظف الاستعلامات الذى هو عامل البوفيه وفراش المكتب وحارس الليل، خرجت منفعلة :

ـ هو انا مش نبهت عليك ميت مرة إنك ماتجيش هنا أبدا، دا مكان عمل .

ـ طب وايه يعنى ؟.

ـ ثم جاى عاوز إيه. أنا مش فاضيالك .

ـ إيه الاسلوب ده . ثم وطى صوتك .

ـ لأمش حاوطى صوتى ياعبد المعبود .

ـ نتكلم في البيت .

ـ أنا مش مروحة على طول، عندى مواعيد بره المكتب .

ـ مواعيد إيه دى بقى ؟

ـ مش شغلك حاجة ماتخصكش يعنى.

وتركته ودخلت منفعلة اصطدمت وهى تطوح بمنديل الرأس أبو اوية، وتتجه إلى مكتبها بنبيه وهو يذهب الى الأرشيف .

ـ نعم عاوز إيه أنت كمان .

ـ أنت اتجننت ولا إيه ؟

صرخت :

ـ ايوه، اتجننت جاى ورايا ليه ؟

ـ نورا ، وبعدين .

ـ ماتقولّيش نورا من فضلك .

ـ على فكرة انت مش واخدة بالك إن الدرس انتهى من زمان والاّ نقول كمان .

استدارت بعنف ثم سقطت قبل أن تبلغ مكتبها مغشيا عليها .

حملها على ذراعيه وهبط الدرجات مسرعا لم ينتظر المصعد، دفعها إلى عيادة طبيب في الدور الأول من نفس العقار، لم يكن الطبيب موجودا ،، اتصل به الممرض، نزل بالروب من سكنه بنفس العمارة كانت مستلقية على السرير بحجرة الكشف، دخل الطبيب وخرج :

ـ مبروك المدام حامل .

ضاعت الرؤية فى ضبابية المفاجأة .

استطرد الطبيب :

ـ هى المدام كانت عملت عملية فى الرحم قبل كده، أو حصل لها إجهاض سابق

لم يجب لأنه لم يسمع فأكمل الطبيب:

ـ ع العموم خدوا بالكو منها كويس هى محتاجة لمباشرة أخصائى طول فترة الحمل، مع السلامة .

★★★

مضت فى طريق لم تعرف إلى أين ينتهى .

ودعها بكلمات مبتسرة تكسرت مخارجها لم يعرف ماذا يقول .

هيستريا هائلة عصفت برأسه وألهبت وجنتيه بحمى سرت فى البدن كله.

أمسكت بكم سترته وهى تتخشب فى وقفتها على الرصيف امام مدخل الدار، وبعبارات تتوتر بالانفعال، توسلت إليه ألا يتركها .

عيناه متحجرتان يؤلمه تورمهما، كأنما هى حبلى بدموع البراكين .

خلص يده من قبضتها التى سقطت الى جوارها كأنما لفظت النفس الأخير .

لايستطيع أن يدرك؛ بماذا كان يفكر أو ماهو الشعور الذى قيد حركته وطمس عقله .

هى أيضا مضت فى عكس الطريق الذى سلكه وقد بدت أشباح الناس تتضح صورهم ويبدو لهم ملامح، بدأت تتسمع لموثر الحياة الذى يتصاعد حولها متأنيا حتى أصبح ضجيجا، تطور الضجيج إلى طنين، ثم إلى أصوات تصرخ بملء حناجرها .

أفاقت على امرأة تسندها ورجل يضع لها مقعدا أمام احد المحلات وصبية تقدم لها كوب ماء، وفتاة تمسح جبهتها بالكولونيا وتضع منديلا ورقيا مبللا بالرائحة على أنفها، وشاب يقول لها :

ـ تحبى نوصلك لأى مكان .

سألت بوهن :

ـ هو إيه اللى حصل ؟

ضمت المرأة رأسها إلى حجرها، ربتت عليه، وهى تقول :

ـ ماكنش يصح تنزلى لواحدك. مادمت تعبانة كده، حاسة بإيه .

ولحق الرجل بكلمات المرأة .

ـ مش أحسن دلوقت الحمد لله .

أومأت برأسها .

أخذ الرجل يصرف الناس الذين تجمعوا للفرجة .

★★★

تواصل رنين جرس الباب فقامت نبيهة مفزوعة من هجعة الأيلولة، لتفاجأ بماهنور تسند رأسها على حافة الباب لا تقوى على رفعه، أخذتها فى حضنها ودخلت بها .

أخلى الزوج فراشه لها، وجذب امرأته إلى خارج الحجرة:

ـ هاتى لى هدومى من جوة، أنا خارج .

ثم قال وهو ينزع ملابسه :

ـ يكون فى علمك انا مش راجع البيت ده لغاية لما الست دى تروح لحالها .

وصفق الباب خلفه ولم يكن قد استكمل ارتداء ملابسه بعد .

★★★

تربعت فى وسط الفراش، احتضنت رأسها بين كفيها، وعلا نشيجها .

جاءت نبيهة على صوت بكائها، واحتدم الموقف .

ـ لا ياستى الدكتور اللّى عالجك من النزيف، عالج التمزق، غرزتين وخلصت .

صرخت :

ـ ماقلتوليش ليه،

ـ قلنا .

واصلت البكاء، وهى تضرب رأسها بيديها وتولول .

قامت نبيهة تصنع لها مشروبا ساخنا، وعادت، كانت ماهنور قد انصرفت .

★★★

استقبلها عبد المعبود وقد وطد العزم على مواجهتها، تجاوزت الساعة التاسعة، ولم تكن قد عادت .

تريث حتى استقرت على المقعد فى الحجرة الداخلية، صنع كوبين من الشاى، قدم واحدة لها وجلس أمامها .

ـ ربنا يسترك كنت محتاجاها فعلا .

ـ وهمّه .

اللى كنت عدنهم، ماقدمولكيش شاى؟

تأملته، وابتسامة ميتة تنبت على شفتيها اللتين أصبح لونهما أزرق ، وخرجت الكلمات مرتعشة :

ـ ماكنش ممكن أشرب شاى فى عيادة الدكتور .

ـ دكتور إيه بقى اسم الله .

ـ رحت استشيره إذا كنت محتاجة جراحة ولا لأ. قال لى مش محتاجة، انت زى الفل ومافكيش عيب .

ـ إيه الموضوع ؟ فهمينى.

نام تلك الليلة، هو مقتنع أنها كانت على موعد مع الطبيب ليعالج تمزق عنق الرحم، لكنها عرفت منه، أن التمزق التأم منذ مدة.

ـ ماحنا عارفين ـ وانت عارفة كويس ـ اللى عالجك م النزيف، عالج التمزق .

ـ أبدا . ماحدش قال لى .

★★★

تباعد من ذهن عبد المعبود وهو مستلقٍ إلى جوارها، سبب مجيئه، بينما تقدم وجه ماهنور التى أرادت أن تفاجئه وهى تتهيأ لتنجب له مولودا.

ـ والله عفارم عليك ياماهى، عرفت تختارى الوقت المناسب .

وغرقت السخرية السوداء، فى فيض من شعور بالحـــب والامتنان يتجدد. لكن كان عليه أن يواجهها بسبب وجوده الحقيقى، فمازال الإعلان قائما،. وموعد الجلسة لم يلغ .

صعدت الدماء الى رأسه التى التهبت بوحشية .

انتفض واقفا يغالب ضيقا فى التنفس .

جافاها النوم، وأخذت ترقبه بنصف عين، وسرعان ماجرفها النوم إلى بحوره التى ازدحمت بتداعيات من الماضى والحاضر، صنع تشابكها كابوسا قامت مفزوعة بسببه .

لم يستأنف أى منهما النوم .

أصبح ذلك مستعصيا بعد أن شرع عبد المعبود إعلان المحكمة فى وجهها كدليل اتهام على الخيانة، وبعد ان غلب صراخها صوت مؤذن الفجر، وهى تنكر معرفتها بما يدعيه، وبالورقة التى يحملها، وبافتراءاته عليها.

انتفضت رغم ذلك اكثر من مرة تطلب الطلاق .

قال :

ـ حتحصلى عليه، لكن بطريقتى انا مش بأسلوبك .

★★★

وقفا أمام القاضى .

قالت :

ـ أنا مارفعتش دعوى تطليق.

ـ يعنى مش عاوزة تتطلقى .

ـ بالعكس، لازم يطلقنى.

ـ يعنى نستمر فى الدعوى.

قال عبد المعبود :

ـ يافضيلة القاضى، الأمر واضح، واحدة طالبة الطلاق لادعاءات مختلقة ومصممة عليه يبقى الموضوع إيه ؟

اعترضت :

ـ بس أنا مش حاطلق بالطريقة دى .

أمعن القاضى النظر إليها ثم قال :

ـ مش أنت اللى قدمت الطلب ده ؟

وعرض عليها أصل الطلب.

ـ أنا ماقدمتش حاجة زى دى كده.

ـ وتوقيعك ؟

ـ ماوقعتش. مش أنا .

ـ يعنى بتطعنى بالتزوير .

ـ معرفش .

ـ يعنى أنت عاوزة إيه بالضبط .

ـ يافضيلة القاضى، الموضوع مش محتاج، أنا خلاص قررت وحاطلق. بس مش تحت الضغط .

ـ انضحكوا تتريثوا شوية، الست باين عليها التردد، بس يمكن واخداها عزة

النفس شوية، اقعدوا مع بعض الأول، ربنا يهديكم مع السلامة .

ولكاتب الجلسة :

ـ تحفظ القضية.

واستمر يملى قراره بينما كانا يركبان سيارة أجرة معا.

ـ حديقة جروبى يا اسطى .

ولم تعترض .

★★★

مرة أخرى تنتفض نبيهة من هجعة الأيلولة لتفتح الباب لماهنور التى كانت تحمل هذه المرة حقيبة متوسطة للسفر.

ـ أنت مسافرة ولا إيه ؟

سألت نبيهة :

ـ لا. مطلقة .

خبطت نبيهة على صدرها وهى تشهق:

ـ يدهوتك ازاى ده حصل ؟

وواصلتا حديثهما وهما تدلفان إلى الصالة .

ـ بريته من كل شىء . مضانى على كل اللى يبريه من كل الالتزامات، واستولى على الشقة .

ـ إزاى مش انت اللى ...

ـ بس العقد باسمه .

ـ لكن الشقة من حق الزوجة .

تدخل الزوج القادم من حجرة النوم .

ـ دا إذا كانت حاضنة، يعنى عندها أطفال محتاجين لحضانتها .

ـ معقول ده ياناس .

قالت نبيهة بأسى دام، واستطردت :

ـ حتعملى إيه دلوقت ؟

أرخت ماهنور رأسها الى الأرض وهى تقول بصوت واهن مشبع بالمذلة والانكسار :

ـ مش عارفة، أنا خرجت م البيت بهدومى اللى اشتريتها أنا بفلوسى، وفى جيبى تلاتة جنيه ونص.

وقامت تهرول إلى الحمام، وما إن أدركتها نبيهة حتى سمع الزوج صراخها :

ـ الحقنى .

كانت ماهنور غارقة فى بحر من دمائها .

لفظ الرحم الجنين .

★★★

كما لم تخطىء عينه ماطرأ عليها من تغيير، كذلك لم تخطىء مااعتراها من هزال، مرضت، انزعج لحالها، قابلت عطفه بتحفظ أثاره.

لمح إصبعها الخالى .

ـ « لا . ليس للطريق عودة اندثر زمان المعجزة ».

★★★

وقفت أمامه هزيلة، تعقد يديها متدليتين أمامها تدعوه لزفافها .

تناول جرعة من حبوب مهدئة طوّحت به ولم تعزله .

صحا فى اليوم التالى سقيما، تجرع نقاطا من دواء منشط ، تزين، تحرك بجسد مرهق يحمل دماغا يضيع وصدرا يضرب الى حيث ينعقد القران.

اخترقت السيارة شوارع مصر القديمة، واعتلت الطريق الصاعد ـ فى حضن

المقابر، قبع المسجد .

جاء مبكرا عن الموعد، افترش أرض المسجد وجلس يسند ظهره إلى عامود يكشف الطرق .

أفراد يتناثرون فى أرجاء المكان، لايبدو على واحد منهم أنه جاء ليشهد .

دخل رجل من باب المسجد، ارتكب فاحشة الإحسان بقرش لمتسول هجم الرابضون فى أرجاء المكان على الرجل نهشوا مافى جيبه وعادوا يتحلقون حول بعضهم، أبدان سمينة ووجوه تلمع بالصحة وكروش تتدلى، هؤلاء هم فقراء المسجد .

قام ليفك عقدة قدميه ، دلف إلى الداخل لمح سيدة ترقب الوافدين .

اقترب منها :

ـ مبروك .

ـ الله يبارك فيك .

ـ اتأخروا ليه ؟

ـ ماأعرفش أصل أنا معزومة زيك تمام، رغم إنى أم العريس.

حفر الزمن تجاعيده بصرامة على ذلك الوجه، الذى ينضح جلده الأصفر بالإعتلال ، يطل من خلف المساحيق الكثيرة، والموضوعة بمبالغة لاتليق بالسن، تحيط بعينين بدتا كعينى جثة، يتوج الرأس باروكة من الألياف الصناعية تغبرت بأتربة مصر الغالية، فستان تهدل من على الاكتاف، لا تستوى أطرافه وحذاء كالح على قدمين لم تحسن غسلهما .

وبدا الموكب من بعيد .

أفراد يتقدمون يتبعهما العروسان .

الموكب محاصر بين حائطين من أقمشة الفراشة .

من بعيد نحيلة ضئيلة تعب فى رداء أبيض فضفاض جاء على غير مقاسها تتعلق بذراعه وهو يحجل إلى جوارها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بلا معنى، ينضح عرقا، تحت سترة داكنة بدت من تحتها ياقة قميصه منبعجة ورباط عنقه مائلا فى غير اتزان على بنطلون رمادى لم تمش عليه مكواة من زمن، ولا استوى تحت حشية السرير، وحذاء مغبر.

ـ « ماهذا ياأميرة ».

اقترب العروسان و هجمت الأم تقبل العريس :

ـ أنا جيت اهه عزمتنى جيت .

لم يجب .

تقدم يشد على يده ويقبله .

ـ « لابأس شبابك يكسب » .

وابتسم كأنما هى مباراة للكرة الطائرة يخسر أشواطها .

مد يده يصافحها تصلبت ذراعها تصنع مسافة بينهما .

فتح باب حجرة صغيرة فى نهاية الممر الضيق، ودخل المدعوون:

صديقتان للعروس ، إحداهما نبيهة وبعض من زملاء العريس لايتعدى عددهم أصابع اليدين، لم يحضر من عملهما غيرهم .

ظلت نبيهة لصيقة بها لاتبتعد كأنما تسند عودا خاويا آيلا للسقوط .

أمعن النظر إليها بادلته النظرات، هش لها، حركت شفتيها ، ربما، امتنانا، الله اعلم .

دارت صبية بعلبة حلوى على المدعوين اختار لنفسه واحدة لم يأكلهـــا .

تبعتها أخرى بزجاجات المياه الغازية، كان حلقه جافا لكن الفتاة تجاوزته .

وبدأت المراسم .

المأذون متأنق يملى نواهيه وأوامره وفروض طاعة المــرأة للرجل ، وحيثيات تبعيتها له .

اختلس النظر .

حاجبان تجاوز تخطيطهما طولهما الطبيعى، وحمرة أضافت بقعتين على الوجنتين بلا اتساق ، أحمر شفاه داكن أخفى مايميز الشفتين ، شعر ربما أفسدت الزوجة تسريحته .

انزلقت عيناه على البدن لم يرسم الصدر الناهض نفوره الأخاذ وخرجت الكفان من الكم الذى بدا أوسع وأطول من اللازم ، معروقتين .

عيناها نهران من الحزن .

ـ « لماذا ؟ ».

وقف فى طابور المهنئين ، قَبَّل العريس ، مد يده إليها أعطته وجنتها، ربت على ذراعها ، ومضى .

على أول الطريق .

كان مأتم يتقدم .

رقم الايداع : ١٩٩٣/٧٤٥٢

I. S. B. N

977 - 07 - 028 I - I



وجيه الشربتنى

- ولد بمدينة المنصورة عام١٩٣٢ .
- عمل بالصحافة بين عامىَ ١٩٥١ و ١٩٩١ .
- نشر روايته الأولى «حكايات شارعنا» عام ١٩٥٨ . كما صدرت له مجموعات قصصية منها «أحلام رجل يموت بطيئاً» و «الآخرون» و «مدينة بلا مسافة» .
- نشرت له مجموعة من الدراسات السياسية منها : «أمريكانى فى الجزائر» «من هو الن دالاس» . و«البترول والحرية» . و«برلين» .
- اعتزل الكتابة الأدبية بضع سنوات ، وحتى نهاية الثمانينات .

هـذه الروايـة

الوطن والنفس البشرية كيان واحد..

هذا ما تؤكده رواية .. «وقائع ما حدث» .. التى ترصد بعضا مما شهده الوطن والبشر عقب هزيمة يونيه . حيث امتزجت سيرة الراوية بسيرة بلاده .. فهو لم يستطع أن يتخلى عن موقفه المبدئى . وإن كان يدين كل الممارسات التى ادت بالوطن إلى التمزق.

ترى ماذا دفع بالرا... يذهب إلى خارج حدود ... وكيف عاش فى الغربة ... عاد ؟ وماذا وجد ..؟

اسئلة مثيرة للتوتر ال... تجيب عليها الرواية ، ... جذاب فنحن أمام كاتب ... الإبداع، لكنه عميق الأفكار، وبعيد الرؤية ..